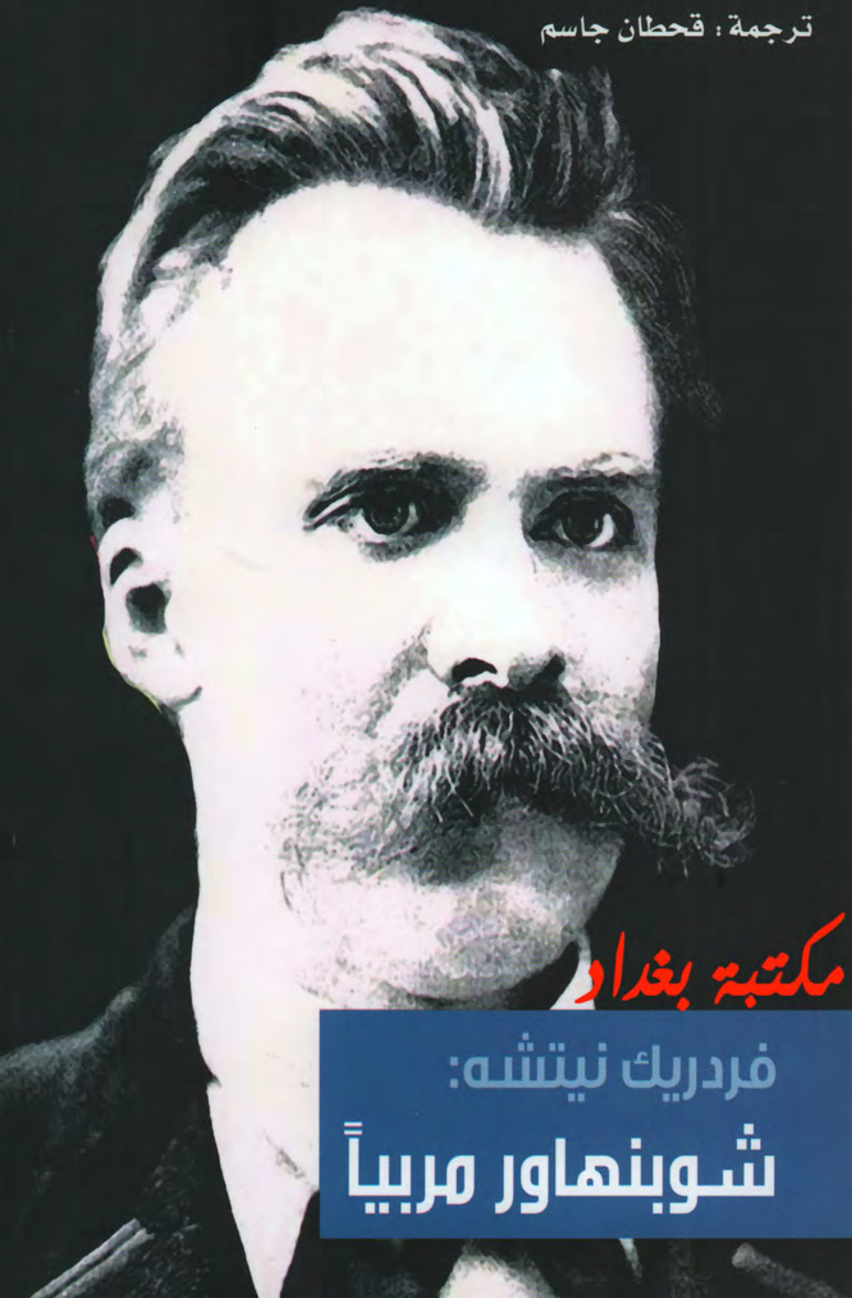
منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

دار أوما
DAR OMA

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

ترجمة : قحطان جاسم



فردريك نيتشه:

شوبنهاور مربياً

فردريك نيتشه:

شوبنهاور مربياً

ترجمة: قحطان جاسم

الطبعة الأولى: 1437 هـ – 2016 م

ردمك 978-614-02-1363-0

دار اوما
DAR OMA

omapublishing@hotmail.com

omapublishing@gmail.com

هاتف: 0096478004500656

العراق– بغداد شارع المتنبي، الناصرية – شارع الحبوبي.

دار الأمان
الرباط

4، زنقة المامونية – الرباط – مقابل وزارة العدل

هاتف: 537723276 212+ – فاكس: 537200055 212+

البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة – الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213+

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com

توطئة

شرعت في البداية في كتابة دراسة تفصيلية عن حياة نيتشه وعن الأفكار الواردة في كتاب **شوبنهاور مربياً** إلاّ أنني عدلت بعد وقت قصير عن ذلك لعدة أسباب منها؛ أنّني تذكرت وصية إميل سيوران التي تقول إن: "كلّ تعليق على كتاب هو أمر سيئ أو غير مجد، فكل ما لا يأتي مباشرة لا قيمة له". والثاني هو أن الكتاب، حسب رأيي، يحمل في ما طرحه، بعض المفاجأة للقارئ، إذ سيجد فيه ما هو مختلف عما قرأه أو تصوره عن نيتشه، ولهذا فضلت أن أترك للقارئ متعة القراءة والاكتشاف الذاتي لأفكاره، بدلاً من طرح تصوراتي المسبقة التي قد تشكل إعاقة لهذه المتعة، خصوصاً أن الكتاب الراهن يتحدث عن فردريك نيتشه ذاته أكثر مما يتحدث عن شوبنهاور وأفكاره. فلم يعرض الكتاب لأفكار وحياة شوبنهاور أو تطوره الفكري، بل يبرِّز بالأحرى أفكار نيتشه بالذات، كما كشف نيتشه في واحدة من رسائله المهمة إلى صديقه باول ديوسن في بداية آب 1877: "حتى وأنا أكتب نصّي الصغير عن شوبنهاور لم أكن ملزماً نفسي بأيٍّ من عقائده؛ على الرغم من أنني ما أزال أؤمن، كما كنت آنذاك، أن هناك الكثير للتعلم منه." (فوس وشابيرو، ص، 41).

إضافة إلى ذلك فإن الكتاب ذو حجم صغير نوعاً ما وتحميله بمقدمة طويلة، كما يحصل أحياناً، قد تشتت أفكار القارئ حول

الموضوعات التي طرحها. ولهذه الأسباب مجتمعة فقد ارتأيت أن أكتفي بهذه التوطئة القصيرة عن الكتاب تاركاً للقارئ أن يبحر وحده في أفكاره وثيماته.

عثر فريدريك نيتشه على كتاب شوبنهاور "**العالم إرادةً وتمثلاً**" عن طريق المصادفة في دار لبيع الكتب القديمة في مدينة لايبزج الألمانية، وعندما انتهى من قراءة الكتاب في نهاية أكتوبرعام 1865، كتب في أوراقه الخاصة بحماس: "هنا يصرخ كلُّ سطر عن رفض ونكران زاهد للذات، وترويض للنفس، هنا رأيت مرآةً لمحت فيها العالَم، والحياةَ، وروحي في تمجيد رهيب. هنا نظرت إلى عين الفن الشمسية اللاأبالية كلياً، هنا رأيت المرض والعلاج، المنفى والملاذ، الجحيم والجنة.") بيشوب، ص، 82). وفي مكان آخر يضيف: "كأنَّ الكتاب مكتوب لي". وعلى ضوء ذلك، يمكن القول إن الكتاب كان بمثابة فاتحة فكرية وجمالية قادت نيتشه فيما بعد إلى عوالم أخرى، ومهدت له أن يضع بعض الأسس التي سيبني عليها أفكاره اللاحقة.

لم ير نيتشه في كتاب شوبنهاور مجرد كتاب فلسفي، بل اعتبره مشروع حياة، وحفز فيه الكثير من الأفكار التي سيعمل عليها، وكانت أولى ثمار ذلك أن تركت أفكار شوبنهاور وفلسفته أثرهما في كتابه الأول **ولادة التراجيديا** (1872).

لقد رأى نيتشه في شوبنهاور، من بين أمور أخرى، الراحة وسط عالم قلق، كما كتب في رسالة إلى صديقه كارل فون جيرسدورف في 7 ابريل 1866: "ثلاثة أشياء تمنحني الراحة، لحظات نادرة من الراحة من عملي: شوبنهاور، وموسيقى شومان وجولات العزلة" (فوس وشابيرو، ص، 3). ولم تكن الراحة النفسية التي جلبتها

أفكار شوبنهاور إليه هي الوحيدة التي أثارت انتباهه وحماسه، بل وأيضاً أسلوبه الأدبي. ففي رسالة أخرى إلى نفس الصديق في 6 أبريل 1867، يشير نيتشه إلى أنه تعلَّم من شوبنهاور، إلى جانب كتَّاب آخرين، أسلوب الكتابة (المصدر نفسه، ص، 6).

تركت شخصية الفنان الموسيقي الألماني ريتشارد فاغنر، إلى جانب شوبنهاور، تأثيرها على نيتشه أيضاً. وهذا ما أفصح به نيتشه في رسالة إلى فاغنر، وكانت علاقتهما في أوجها "أن أفضل وأسمى لحظات حياتي مرتبطة حقاً باسمك، ويوجد هناك شخص واحد فقط، أوقرّه على حد سواء، قرينك الروحي العظيم شوبنهاور، الذي أعبده في الحقيقة تقريباً" (ص، 9).

إلاّ أن نيتشه لم يستمر على إبداء هذا الرأى فيما بعد نحو فاغنر، بل هاجمه وأنتقده بشدة، كما كتب ذلك في أواخر حياته، في رسالة بتاريخ 26 شباط 1888 إلى صديقه بيتر غاست "ما كتبته عن فاغنر في رسالتك يذكرني بملاحظة لي كتبتها في مكان ما"، إن "أسلوبه الدرامي" هو ليس سوى نوع من أنواع الأساليب الرديئة، حتى أنه ليس أسلوباً في الموسيقى"(ص، 109).

وعلى الرغم من أنَّ نيتشه حاول التنصّل مراراً من تأثير شوبنهاور عليه أو إنكار تعلقه به، فإنّه بقي على العكس من الموقف تجاه فاغنر، محباً لشوبنهاور وأميناً لأفكاره، كما تؤكد على ذلك الرسالة التي أرسلها إلى صديقه الباحث ومؤرخ الأدب الدانماركي جورج برانديز في 10 أبريل 1888، حيث يعترف فيها في السنوات الأخيرة من حياته بأهمية شوبنهاور: "إنَّ ما قلته عن شوبنهاور مربياً يسعدني كثيراً. هذه القطعة الصغيرة تفي بالغرض كبطاقة هويتي: التي

لا تذكر شيئاً شخصياً عنه والتي ليس لها معي، على أكثر ترجيح، أي شيء. إنها تحتوي في الجوهر المثالَ الذي احتذيت به حتى الآن" (فوس وشابيرو، ص، 112). لكن هذا لا يعني غياب الاستقلالية التامة للأفكار الجديدة التي طرحها نيتشه خلال عمله الفكري، رغم تردد صدى أفكار شوبنهاور في العديد من كتاباته.

يمكن ملاحظة التأثير الذي تركه شوبنهاور على نيتشه في هذا الكتاب، الذي نترجمه إلى العربية، وهو واحد من بين ثلاثة عشر نصٍّ كان نيتشه قد خطط لكتابتها، إلاّ أنه اكتفى فيما بعد بأربعة منها وتخلّى عن الموضوع نهائياً، كما يوضِّح نيتشه في الرسالة التي ذكرتها أعلاه إلى صديقه جورج برانديز، حيث يقول فيها إنه كتب هذه النصوص بين (1872 وصيف 1875)[1] و"كان من المفروض أن اكتب 13 نصّاً، إلاّ أنَّ صحتي للأسف قالت لا." (ص، 112). صدرت النصوص في البداية كلّ على حدة، لكنها جمعت فيما بعد وصدرت في كتاب واحد تحت عنوان *Unzeitgemäße Betrachtungen*. ويعرض الكتاب لأفكار وتصورات نيتشه عن دور الفيسلوف وأهميته في المجتمع والمعاناة التي يواجهها من محيطه بسبب آرائه النقدية وتصوراته المضادة للمعتاد والمتداول من الأفكار والعادات والسلوك، ثم تأكيده المتكرر على أهمية إفساح فرصة أكبر أمام الفيلسوف والعالِم، وأن لا يتحوّلا إلى أدوات في خدمة الدولة، بل ويطالب بقوة إلى حيادية نشاطاتهما والمؤسسات التعليمية والكف عن أن تكون في خدمة أهداف الدولة ومصالح الرأسماليين.

(1) إشارة نيتشه إلى تاريخ كتابة النصوص وليس إلى إصدارها.

هذه أول ترجمة عربية لنصّ **شوبنهاور مربياً** (1874). وتنبع أهمية النصّ من أنه يساعد الباحث والقارئ معا على فهم التطور الفكري لفريدريك نيتشه وعلى تتبع العديد من الأفكار المطروحة في هذا الكتاب فيما طرحه بعد في كتبه اللاحقة.

تكمن صعوبة ترجمة نيتشه من تراكم المعاني في لغته، كما أشار إلى ذلك محررا ومترجما النص إلى الإنكليزية دانيال بريزلا ور. ج. هولينغديل. فلو أخذنا على سبيل المثال عنوان الكتاب الذي تضمّن نصّ **شوبنهاور مربياً**، لوجدنا أن هناك أربعة اقتراحات مترجمة إلى الإنكليزية، كما تختلف الترجمتان إلى الإنكليزية اللتان اطلعت عليهما في مواضع عديدة. علاوة على ذلك، فإن الكتاب الراهن هو أكثر الكتب التي تعاني من عدم التركيز وتشتت العبارات وعدم تسلسها الأسلوبي أحياناً، وهو الأمر الذي لاحظته الباحثة جوليان يونغ حيث تشير إلى أنَّ النصَّ "يعوزه تركيز واضح، وسبب هذا كما أعتقد، أنَّ الكتاب يحاول أن يعرض أموراً عديدة في نفس الوقت (...) ويعيد صياغة فلسفة شوبنهاور إلى شيء أكثر تطابقاً معه" (يونغ، ص، 43). ومع ذلك سعيت، من جهتي، إلى الحفاظ على جوهر النص وتركيبته الأسلوبية وجوهره وقمت بمطابقة نصَّين مترجمين إلى الإنكليزية، إضافة إلى الرجوع إلى ترجمة دانماركية حديثة صدرت عام 2014، وهي لغة مقاربة إلى اللغة الألمانية. كما قمت بمطابقة النصّ الأنكليزي في بعض المواضع التي شعرت بارتباك النصّ مع النصّ الألماني بمساعدة زوجتي ليز جاسم لحصر الفوارق في النصَّين، من ثم الاعتماد على النص الأصلي في الترجمة. ولقد اعتمدت في هذه الترجمة بصورة أساسية على النصِّ الأنكليزي،

باستثناء الحالات التي تطلبت تعديلات لتكون منسجمة مــع الــنص الألماني.

النص الاصلي للكتاب الذي ضم نص **شوبنهاور مربيا** بالألمانيــة هو Unzeitgemäße Betrachtungen، أمّا عنوانه بالإنكليزيــة فهــو Untimely Mediations، أمّا النص في ترجمته الداغاركية فقــد صــدر منفرداً تحت عنوان **شوبنهاور مربياً** Schopenhauer som opdrager.

ورغم أن الكتاب لم يلق اهتماماً، على مدى سنوات، مثلمــا لاقته أعمال نيتشه الأخرى من قبل الباحثين أو المترجمين العــالميين، فإنّه لاقى في السنوات الأخيرة اهتماماً متزايداً من لدن الوسط العلمي والقرّاء على حد سواء. ولهذا أرى أن ترجمته إلى العربية قد يســاهم بإلقاء ضوء جديد على فكر نيتشه، إضافة إلى أنه يمثل خدمةً للثقافــة العربية.

اعتمدت لكتابة التوطئة على المصادر التالية:

1) Peter Fuss and Henry Shapiro (Edited and translated), A Self-Portrait from his Letters, Cambridge, Harvard University Press, 1971.

2) Fuss, Ludovici, A.N, (Translated with Edition and an Introduction by O. Levy), Selected Letters, London, The Soho Book company, 1985 (first published 1921).

3) Thielst, Peter, Jeg er ikke noget menneske- Jeg er Dynamit!, Gyldendal, 1997

4) Young, Julian, Nietzche's Philosophy of Religion, Cambridge University Press,2006

قحطان جاسم

25 آب 2015

Shopenhauer as educater

1

سأل شخصٌ رحّالةً زار بلداناً وشعوباً وعدداً من القارات، فيما إذا كانت هناك سجيّة محددة اكتشفها عند البشر في الأماكن التي زارها. أجاب: "لدى البشر في كل مكان نزوع نحو الكسل." ويعتقد العديد، أنه كان يتعين عليه أن يقول: جميعهم خائفون؛ إنهم يبحثون عن ملاذ في العادات والآراء. في الواقع يدرك كلّ إنسان جيداً بأنه مخلوق فريد، وأنه لا يشبه شيئاً آخر في العالم، وأنه ما من مصادفة غريبة سيمكنها أن تجمع لمرة ثانية في وحدةٍ مثل هذا التنوع الملون الرائع كما هو. إننا نعرف هذا، لكننا نخفيه، كما نخفي ضميرنا السيِّئ- لماذا؟ من الخوف من الجار الذي يتطلع إلى الالتزام بالعادات التي يدثّر نفسَه بها. لكن ما الذي يدفع الفرد كي يخاف جاره، كي يفكر ويسلك سلوك القطيع ولا يكون فرحاً بنفسه؟ ربما هو عند الأقلية والنادرة الشعور بالعار، لكن عند الأغلبية فهو الراحة، العطالة؛ باختصار إنه الميل إلى الكسل، الذي تحدث عنه الرحّالة. وبالتالي فإنه على حق: البشر كسالى أكثر مما هم خائفون. وخوفهم

الأكبر هو الأعباء التي يمكن أن تحمِّلهم ايّاها الصراحةُ والصدقُ اللامشروط. وحدهم الفنانون يكرهون هذه النزهة البليدة في الأساليب المستعارة والمعاني المستهلكة. إنهم يكشفون السرَّ، ضمير كلّ فرد سيئ، والقاعدة هي أنَّ كل إنسان أعجوبة فريدة؛ إنهم يجرؤون ليظهروا لنا الإنسان كما هو، ذاته المتفردة إلى آخر حركة صغيرة من عضلاته، وهو، علاوة على ذلك، جميل وجدير بالاعتبار، لهذا السبب البسيط، إنه متفرد، جديد ومدهش ككل شيء تنتجه الطبيعة، وإنه أيّ شيء سوى أن يكون مملاً. حين يمقت المفكرُ العظيمُ البشرَ، فإنه يمقت كسلَهم: فنتيجة لكسلهم يبدو الناس مثل منتوجات مصنع، أشياء عديمة الأهمية وغير جديرة للاقتران بها أوتعليمها. الإنسان، الذي لا يريد أن يكون جزءاً من الحشد، عليه فحسب الكفّ عن أن يكون متسامحاً تجاه نفسه؛ عليه أن يتبع ضميرَه حين ينادي عليه: "كن نفسك! فكلّ ما تفعله وتفكر به وتشتهيه الآن، ليس هو ذاتك."

كلّ روح شابة تسمع هذا النداء ليلاً ونهاراً وترتعش حين تسمعه: لأنَّ فكرة تحررها تمنحها إحساساً داخليا عن هدف السعادة الذي تم تخصيصه لها منذ الأبد، السعادة التي لا يمكن بلوغها، طالما أنها ترسف في أغلال الأعراف[1] والخوف. كم ستكون الحياة بلا معنى وبائسة بدون هذه الحرية! لا يوجد في الطبيعة مخلوق فارغ وصادم أكثر من الإنسان الذي انفصل عن قراره الروحي، ولا يفعل شيئاً سوى أن يتلفّت يساراً ويميناً، وخلفه وحوله. في الواقع لا يملك المرء الحق بمهاجمة مثل هذا المخلوق، لأنه مجرد قشر بلا محتوى؛ لباس

---

(1) يمكن ان تترجم ايضا "اغلال الرأي العام".

ملون وبالٍ، ليس أكثر من شبح لا يبعث حتى أيّ خوف وأيّ تعاطف. وعندما يقول المرء بحق عن الكسول، إنه يقضي الوقت عبثاً[1]، فعلى المرء أن يخاف حقاً، أن عصراً يبحث عن خلاصه في الرأي العام، أيّ في الكسل الشخصي، هو زمن سيتم تضييعه فعلاً: أعني أنه زمن سيتم شطبه من تأريخ التحرير الحقيقي للحياة. كم ستكون الأجيال القادمة مترددة بعلاقتها مع بقايا عصر حكمه ليس رجال أحياء بل أشباه رجال هيمن عليهم الرأي العام؛ ربما سيَعتَبر عهدٌ قادمٌ بعيدٌ عصرَنا لنفس السبب من أكثر العصور المظلمة والمجهولة في التاريخ، باعتباره أكثر العصور اللاإنسانية على الإطلاق. عندما أتجول في شوارع مدننا الجديدة، فإنني أتخيَّل أن كلّ هذه البيوت البشعة التي بناها جيل الرأي العام لنفسه ستختفي بعد مائة عام ومعها بلا شك آراء سادة البيوت. إن أولئك الذين لا يشعرون بأنفسهم أنهم أبناء لهذا العصر، لهم على العكس من ذلك الحق أن يكونوا متفائلين، لأنهم لو كانوا أبناءً لهذا العصر فإنهم سيساهمون أيضاً في قتل زمنهم وسيهلكون معه - بدلاً عن ذلك، عليهم إيقاظ العصر إلى حياة جديدة، التي يمكنهم الاستمرار العيش فيها بأنفسهم.

لكن حتى إذا لم يمنحنا المستقبل باعثا للأمل، إلاّ أن الحقيقة الرائعة، أننا نعيش هنا والآن، ستمنحنا الشجاعة كي نعيش طبقاً لقوانيننا ومقاييسنا الخاصة؛ إن ما يتعذر تفسيره، بكوننا نعيش اليوم بالذات، رغم أنه كان لدينا وقت لامحدود لنظهر فيه إلى الوجود؛ هو أننا لا نملك شيئاً آخر سوى فترة قصيرة فقط لكي نبين فيها لماذا ولأي هدف جئنا إلى الوجود حالياً وليس في أي وقت آخر. علينا

(1) الترجمة الحرفية يقتل الوقت.

أن نتحمَّل المسؤولية عن وجودنا وندافع عنه تجاه أنفسنا. ولهذا نريد أن نكون أيضاً سادةً حقيقيين في هذا الوجود ولا نسمح أن يُشبه وجودُنا مصادفةً طائشة. الإنسان مجبر أن يعيش حياته بجرأة وخطر؛ وخاصة لأنَّ الإنسان سيفقدها في كل الاحوال دائماً. لماذا تتشبث بقطعة أرضك، أو بتجارتك الصغيرة، لماذا تعطي أهمية لما يقوله جارك؟ إنه لضيقُ أفقٍ كبيرٍ أن تلزمَ نفسَك بآراء لم تعد ملزمة حتى لمن يبعدون من هنا مئات الأميال. الشرق والغرب خطوط رسمها بعض ممن سبقنا لكي يخدعوننا، لأنهم يستغلون مخاوفنا. "سأقوم بمسعى لنيل الحرية" تقول الروح الشابة لنفسها؛ فهل ينبغي أن تكبح نفسها؛ لأنَّ أمّتين تكرهان وتحاربان الواحدة الأخرى، أو لأن جزأين من العالم يفصلهما بحر، أو يتم التبشير هنا وهناك بدين لم يكن موجوداً لبضعة آلاف أعوام خلت؟ "كلّ هذا ليس *أنت*" تقول الروح لنفسها." لا أحد يستطيع بناء هذا الجسر لك، الذي ستستخدمه أنت بالذات لعبور نهر الحياة، لا أحد آخر سواك. توجد هناك بالتأكيد دروب وجسور عديدة وأنصاف آلهة، تريد حملك إلى الضفة الأخرى من النهر، لكن فقط إذا تنازلت عن نفسك؛ ستبيع روحك وستفقد نفسك. يوجد هناك طريق واحد في هذا العالم، الذي لن يسلكه أحد سواك: إلى أين يفضي هذا الطريق؟ لا تسأل، بل اسلكه. من هو الذي قال: "لا يرتفع الإنسان عالياً أبداً إلاّ حين لا يعرف إلى أين سيقوده طريقُه؟[1]

---

(1) Oliver Cromwell, as quoted in Ralph Waldo Emerson'a essay 'Circles': قرأ نيتشه مقالة إيمرسون "حلقات في طبعتها الالمانية ودرسها باهتمام.

لكن كيف نعثر على أنفسنا ثانية؟ وكيف يمكن لإنسان معرفة نفسه؟ إنّه سؤالٌ غامضٌ ومبطّن؛ وإذا كان للأرنب سبعة جلود، فسوف يسلخ الإنسان كل سبعة سبعين مرة دون أن يكون قادراً أن يقول: "هذه هي أناك الحقيقية، وهذه ليست مجرد قشر."[1] علاوة على ذلك، فإنّه أمر مؤلم وخطير أن يشرع المرء بالحفر في نفسه عن نفسه وينزل بعنف مباشرة في أعماق وجوده. الإنسان الذي يفعل هذا يمكن أن يؤذي نفسه بسهولة، بحيث لا يستطيع أي طبيب معالجته. وعلاوة على ذلك، ما هي الحاجة ثانية إلى كل ذلك، طالما أنّ كلّ شيء يشهد مسبقاً على ما نحن عليه: أصدقاؤنا وأعداؤنا، ملامحنا ومصافحاتنا، ذكرياتنا ونسياننا، كتبنا والسطور التي نكتبها. هذه على أية حال هي الوسيلة التي يمكن بواسطتها بحث أغلب الملامح أهمية. لتلقي الروح الشابة نظرة إلى الوراء على الحياة وتسأل: "ما الذي أحببته حقاً حتى الآن، ما الذي أنقذ روحك، ما الذي هيمن عليها وجعلها سعيدة في الوقت نفسه؟" رتّب أشياءك المعبودة أمامك، فربما تُبين لك طبيعتُها وتسلسلُها قانونَ، دستورَ ذاتك الحقيقية. قارن تلك الأشياء مع بعضها، وانظر كيف تكمل الواحدة الأخرى، توسعها، تتجاوزها وتغير مظهرها، وكيف تشكل سلّماً، الذي استخدمته حتى هذا الوقت للتسلق عليه إلى نفسك؛ لأنّ طبيعتك الحقيقية ليست مدفونة في أعماقك، بل إنها موجودة أعلى منك بصورة لا حد لها، أو على الأقل أعلى مما تعتبره عادةً ذاتكَ الحقيقية. مُربُّوك وصانعوك[2] الحقيقيون يكشفون لك ما هي

---

(1) يمكن ان تترجم إلى "قحف، أو غلاف خارجي".

(2) يستخدم نيتشه مفردة bildung التي تعني فنان أو خالق، ويمكن ترجمتها حسب القاموس الدانماركي الالماني "تعليم، تربية، شخصية، شكل، بنية، بناء.

المادة الأساسية والمعنى الأصلي والحقيقي لطبيعتك، إنه شيء لا يمكن بأية طريقة تربيته أو صنعه، إنه شيء صعب المنال، مقيد ومشلول: سيكون مربوك بالضرورة محرِّريكَ أيضاً. وهذا هو السرّ في كل تربية[1]: إنها لا تجهزنا بأعضاء اصطناعية وأنوفٍ شمعية أو نظاراتٍ طبية - إن تلك الهدايا تعطينا بالعكس صورة مشوهة فحسب عن التربية. إنها بالمقابل تحرير، إزالة لكل الأعشاب الضارّة، القمامة وكل الحشرات التي تهاجم البراعم الحساسة، إنها تشع ضوءاً ودفأً، إنها رذاذ المطر الناعم في الليل؛ إنها تقليد وعبادة جانب الطبيعة الرحيم والأمومي؛ - إنها تكمل الطبيعة، عندما تتحاشى اعتداءاتها الظالمة والعنيفة وتحولها إلى خير، وحين تخفي تعابير مزاج الطبيعة القاسي، الذي يشبه مزاج زوجة الأب وعدم فهمها المحزن.

لكن توجد هناك بالتأكيد طرق أخرى للعثور على أنفسنا، والعودة إلى أنفسنا من التيه الذي يتجول فيه المرء عادة كما في سحابة مظلمة؛ لكنني لا أعرف أيّة طريقة أفضل من أن يتذكر المرء مربّيه ومهذبيه. ولهذا سأتذكر المعلم الوحيد ورجل المهمات الذي يمكنني التفاخر به، إنه *آرثور شوبنهاور* - وسأتذكر آخرين لاحقاً.

(1) يستخدم نيتشه مفردة تربية بمعنى مركب، فتعني التعليم، والثقافة، والتنشئة، والتعليم وغيرها.

2

لكي أصف بصورة ملائمة أيّ حدث كان بالنسبة لي حين اطّلعت لأول مرة على كتابات شوبنهاور، فعليّ أن أمعن النظر للحظة في فكرة كانت تراودني مراراً في شبابي ومسّتني بعمق أكثر من أية فكرة أخرى. عندما كنت أطوف في تلك الأيام كما كان يحلو لي في أمنيات من كل نوع، اعتقدت دائماً أنّ القدَرَ سيحرِّرني من الواجب الشاق والمخيف الذي هو تربية نفسي؛ من خلال عثوري في الوقت المناسب على فيلسوف يقوم بتربيتي، - فيلسوف حقيقي، يطيعه المرءُ بدون تحفظ، لأنه يثق به أكثر مما يثق بنفسه. ومن ثم سألت نفسي: "ما هي المبادئ التي سيقوم بموجبها بتربيتك؟" تأمّلت مع نفسي عمّا سيقول عن قاعدتَي التربية اللتين أصبحتا دارجتين في عصرنا. الأولى تتطلب من المربِّي أن يعثر بسرعة على قدرات تلاميذه الخاصة، وأن يوجِّه كلَّ جهوده وقدراته وحماسه نحوها ليساعد على جعل هذه الفضيلة ناضجةً ومثمرةً. الآلية الثانية تقتضي، على العكس من ذلك، أن يشجعَ ويعتني المربِّي بكلِّ القدرات الموجودة لدى

تلاميذه ويجعلها متناسقةً مع بعضها. لكن هل يعني هذا إجبار مَن له ميل قوي نحو صياغة الذهب على دراسة الموسيقى بالقوة؟ هل يوافق المرء على أن أب بنفيتو سيليني أجبر ابنه على أن يعزف "عزيزي البوق الصغير" باستمرار- "المزمار اللعين"، كما كان يسميه الابن؟ كلا، لا يمكن للإنسان أن يوافق على مواهب محددة بوضوح وقوة كبيرة؛ ربما يمكن تطبيق الآلية (الثانية) التي تدافع عن التطور المنسجم على الشخصيات الضعيفة فقط، التي تحتوي بالتأكيد شبكةً كاملةً من الحاجات والميول، لكن التي لا تعتبر ذات قيمة خاصة سواء كانت منفردة أو مجتمعة؟ لكن أين نعثر على هذه الوحدة المنسجمة وعلى الصدى المتعدد في شخصية واحدة، حيث ننظر بإعجاب إلى الإنسجام أكثر مما في بشر كسيليني بالذات، حيث كلّ شيء- المعرفة، الشهوة، الحب، الكراهية - يسعى نحو نقطة مركزية، جذر قوي، وحيث تخلق هذه القوة العليا الإجبارية والقسرية للمركز الحيّ نظاماً منسجماً من الحركات إلى الأمام والخلف، إلى الأعلى والأسفل؟ ربما أن هاتين الآليتين ليستا متعارضتين على الإطلاق؟ ربما تقول إحداهما ببساطة إنَّه ينبغي أن يكون للإنسان مركز، والأخرى تقول ينبغي أن يكون لديه محيط؟ إن الفيلسوف المربِّي الذي حلمت به، لا يكتشف القوة المركزية حسب، بل يعرف أيضاً كيف يتجنب المرء عملها التدميري على القوى الأخرى: ويبدو لي أن هدف تربيته سيكون بالأحرى تحويل كل الإنسانية إلى نظام كوني متحرك وحي، وإدراك مبادئ حركته العالية.

لكنني لم أعثر في هذا الوقت على هذا الفيلسوف، وقد جرَّبت هذا وذاك: واكتشفت كم نبدو نحن البشر المعاصرين بؤساء مقارنة

بالرومانيين واليونانيين، حتى حين يتعلق الأمر فحسب بفهم جاد ودقيق لمهمات المربّي. يمكن للمرء أن يتجول في كل ألمانيا، خصوصاً الجامعات، بمثل هذه الحاجة في قلبه دون أن يعثر على ما يبحث عنه؛ لأنّ عدداً من مبادئ بسيطة إلى حد بعيد وأساسية بدرجة أكبر ما تزال غير منجزة هنا. لو كانت لدى المرء رغبة قوية مثلاً لأن يدرُس كي يكون خطيباً في ألمانيا، أو فكر في أن يحصل على تعليم كمؤلف، فإنه سيبحث بلا طائل عن المدارس والمعلمين: لا يبدو أن أحداً قد أدرك أن القراءة والكتابة هي أنواع فنية لا يمكن تعلمها بدون توجيه شديد العناية وتدريب لا يكلّ. لكن لا شيء يظهر رضا معاصرينا الذاتي الأرعن أكثر وضوحاً وأشدَّ مدعاةً للخزي من المطالب المبتذلة، التي نطرحها بسبب البخل وانعدام الفكر على مربّينا ومعلمينا. نحتاج إلى القليل جداً لكي يصبح المرء معلماً منزلياً حتى بين ناسنا المتميزين وأكثرهم علماً؛ أيّ خليط غريب من رؤوس بليدة وتقاليد مضى عليها الزمن لم نمنحها موافقتنا بتسميتها مدرسة إعدادية! نحتاج القليل جداً قبل أن نسمِّي شيئاً تعليماً عالياً أو جامعةً - نطلب القليل من رؤسائنا ومؤسساتنا مقارنة بصعوبة تربية إنسان لكي يصبح إنساناً! حتى أكثر مناهج العلماء الألمان المشهود لها المطبقة في علومهم تكشف أكثر من أي شيء آخر بأنهم يفكرون بالعلم أكثر من الإنسانية، وأنهم دُرِّبوا كقطيع خاسر آثر التضحية بنفسه من أجل العلم ويسعى لإقناع أجيال جديدة للتضحية بنفسها أيضاً. إنّ رعاية الصلة بالعلم، إن لم يجرِ تقييدها وضبطها من قبل مبدأ تربوي أعلى، بل يسمح لها الانطلاق بحرية لا محدودة من مبدأ "كلما كان أكثر كان أفضل"، سيكون بالتأكيد ضاراً بالعلماء مثلما يكون مبدأ عدم

التدخل الاقتصادي[1] مؤذياً لأخلاق كلّ الشعب. مَن هناك ما يزال يدرك أن تعليم العالِم، الذي لا ينبغي التخلي عن انسانيته أو سلبها خلال هذه العملية، قضيةٌ صعبةٌ جداً، - مع أن هذه القضية الصعبة واضحة بجلاء حين ينظر المرءُ إلى تلك النماذج العديدة، التي صارت محدودبةً ومعوجّةَ الجسد خلال الإخلاص الطائش والمبكر للعلم[2]. لكن يوجد هناك شاهد حتى أكثر أهمية على غياب كل التعليم العالي، أكثر أهمية وخطراً وعلاوة على ذلك أكثر شيوعاً. فإذا كان الأمر واضحاً ببساطة، بأنه لا يمكننا أن نخرّج خطيباً أو كاتباً اليوم - لأنه لا يوجد معلمون لهم؛ وإذا كان الأمر واضحاً بنفس القدر، أن يصير عالِم اليوم متغضنَ الجسدِ وبليدا؛ لأنَّ على العلم، أيّ التجريد اللاإنساني، أن يعلّمه، فسينتهي المرء إلى أن يسأل نفسه: أين نجد نحن، علماء وغير علماء، ذوي المناصب العليا والواطئة، النماذج الأخلاقية والمشاهير بين معاصرينا، الخلاصةَ الملموسة لأخلاقية عصرنا الإبداعية؟ ما الذي جرى لكل التأملات حول الأسئلة الأخلاقية، التي كانت هدفاً في كلِّ الأزمنة للنقاش في كل المجاميع المتحضرة الراقية؟" لم يعد هناك أي نموذج أو أي تفكير من هذا النوع، وما نفعله في الواقع هو استهلاك الرأسمال الأخلاقي الذي ورثناه من أجدادنا، و لم نعد قادرين على زيادته، بل نعرف فقط كيف نبدِّده؛ فإمّا أننا لا نتحدث إطلاقاً عن أمور كهذه في مجتمعنا، وإمّا أن المرء يتحدث عنها بطريقة تنم عن سماجة وعدم خبرة بحيث تثير الاستياء.

---

(1) laissez fair

(2) يصف نيتشه هنا الاشخاص الذين ينكبون على قراءة الكتب فيصابون بانحراف في الجسد وتظهر عليهم علائم تقوس الظهر.

وعلى هذا النحو فقد حصل ببساطة أن مدارسنا وأساتذتنا يصرفون النظر عن التعليم في الأخلاق أو يقنعون أنفسهم بالقيام بإجراءات شكلية: فالفضيلة هي كلمة لم تعد تعني أي شيء لمعلِمينا أو طلبتنا، إنها عبارة قديمة يضحك المرء منها - وويلٌ لأولئك الذين لا يضحكون، فلابد أنهم مُراؤون.

تفسير هذا العوز في شجاعة المرء ومشاعره وانحسار كل الطاقات الأخلاقية صعب ومعقد. لكن لا يمكن لأحد يتأمل ملياً في تأثيرِ المسيحية المنتصرة على أخلاق عالمِنا القديم أن يتجاهل ردة فعل المسيحية المهزومة تجاه عصرنا، الذي مايزال هو حالها اليوم. بزّت المسيحية بمثاليتها العالية المنظومات الأخلاقية للعصور القديمة والطبيعية[1] التي هيمنت بدون استثناء فيها جميعاً، إلى درجة أن هذه الطبيعية ولّدت إحساسا باللامبالاة والاشمئزاز؛ لكن، عندما تبيَّن لاحقاً أن تلك المثاليات[2] الراقية والجيدة بعيدة المنال، وإن كان معروفا الآن، فلم يعد ممكناً العودة إلى ما هو خير وسامي، أي الفضيلة القديمة بغض النظر عما يتمناه المرء. يعيش الإنسان الحديث متأرجحاً بين المسيحية والعهد القديم[3]، بين أخلاق مسيحية وجلة أو كاذبة وبين تقليد جبان وغير حر بنفس القدر للعهد القديم، والإنسان المعاصر يعاني في ظل هذا الخوف الموروث من الطبيعية من

---

(1) ترجمة لـ "naturalism" يمكن أن نيتشه هنا يشير إلى مذهب الطبيعية، وهو مذهب فكري يؤمن بأن الفن والأدب يجب أن يكونا صورة صادقة عن العالم والناس كما هما. مذهب فكري يعلل الأشياء ويفسرها على أساس قوانين الطبيعة والمسببات الطبيعية.

(2) ترجمة لـ Ideals

(3) لا يعني هنا بالعهد القديم، اليهودية، بل العهد اليوناني القديم.

جهة، والجاذبية المتجددة لهذه الطبيعية من جهة أخرى، الرغبة العميقة في العثور على قدم راسخة في مكان ما، المعرفة العاجزة التي تتأرجح إلى الأمام والخلف بين الجيد والأفضل - كل هذا يولّد عدم استقرار، وانشطاراً في الروح الحديثة، التي يحكم عليها بأن تكون بلا فـرح أو حياة. لم يَحتَج الإنسان سابقاً إطلاقاً إلى مربِّين أخلاقيين كما هـو اليوم، ومن غير المرجح أبداً العثور عليهم: في هذه الأوقات حيـث تكون الحاجة إلى الأطباء ماسّة، في أوقات الأوبئة الكبيرة، فإنهم أيضاً أكثر عرضة للخطر. فأين هم أطباء الإنسانية الحديثة، الـذين هـم أقوياء وصامدون كفاية، بحيث تكون لـديهم القـدرات لمسـاعدة الآخرين وترشدهم في الطريق؟ ثمة كآبة وخمول خاصان تنتابان أفضل شخصيات عصرنا، مشاعر استياء دائم خلال الصراع بين المـواراة والصدق الذي يكافحونه في أعماقهم، نقـص الثقـة الراسـخة في أنفسهم - الذي يجعلهم غير قادرين تماماً علـى أن يكونـوا أدلّـاء ومراقبين للآخرين في الوقت نفسه.

كان هذا حقا زوغان خلال أمنيات حين تصورت أنني سـأعثر على فيلسوف حقيقي كمربٍّ، يمكنه أن ينتشلني من بؤسي، الـذي تسبب به إلى حد بعيد عصرنا، ويعلمني ثانية ان اكون *بسيطًا وصادقًا* في الفكر والحياة، بمعنى أن اكون خارج الزمن،[1] بـالمعنى العميـق للكلمة؛ لأنَّ الناس أصبحوا حالياً معقّدين جداً وذوي وجوه متعددة فإنهم مرغمون على أن يكونوا غير صادقين ليكون بإمكانهم التحدث على الإطلاق، وأن يطرحوا افتراضات ويعملوا طبقاً لها.

---

(1) يمكن أن تترجم أيضـاً "خـارج زمنـه" أو قبـل الأوان أي سـابقاً لعصره.

كنت بمثل هذا الظرف من المعاناة الداخلية والحاجة والأمنية حين تعرفت على شوبنهاور.

أنا أحد قرّاء شوبنهاور الذين حين يقرؤون الصفحة الأولى، يمكنهم أن يقولوا بثقة إنهم يقرؤون كل الصفحات وسينصتون إلى كل كلمة قالها ذات يوم. لقد وثقت به على الفور، وثقتي هي ذاتها الآن كما كانت قبل تسع سنوات مضت. إنني أفهمه كما لو أنه قد كتب كلّ شيء لي، رغم أنّه أمر أحمق وغير لائق أن أطرحه بهذه الطريقة. لهذا السبب لم أعثر أبداً على مفارقة لديه، رغم أنني هنا وهناك عثرت على أخطاء صغيرة؛ لأنّ المفارقات ليست سوى مزاعم لا توقظ أية ثقة؛ لأنّ كاتبها نفسه طرحها دون أن يكون مقتنعاً بها فعلاً واستخدمها لتبدو بهيةً مغريةً وعموماً متكلفة؟ لا يتصنَّع شوبنهاور إطلاقاً، لأنه يكتب لنفسه، ولا أحد يرغب في أن يكون مخدوعاً، على الأقل الفيلسوف، الذي وضع أمام نفسه القاعدة التالية: "لا تخدع أحداً، ولا حتى نفسك! ولا حتى بأكاذيب اللقاءات الاجتماعية البيض، التي ترافق كلّ حوار تقريباً، والتي يقلدها الكتّاب بنصف وعي؛ ولا حتى بأكثر أساليب البلاغة المصطنعة والخداع الواعي لمنبر الخطيب. كلا، شوبنهاور يتحدث مع نفسه؛ أو أن على المرء أيضاً، إذا رغب في أن يكون مستمعاً على الإطلاق، أن يتصور ابناً يرشده أبوه. إنها خطبة صادقة وقوية وسخية أمام جمهور ينصت بحب. ينقصنا أمثال هؤلاء الكتاب. سيشملنا إحساس المتحدث القوي بالسعادة حالما نسمع صوته؛ سنشعر مثلما ندخل في الغابة العميقة، نسحب نفساً عميقاً ونشعر بغتة بالراحة ثانية. هنا، نشعر أن الهواء في كل مكان منعش؛ هنا توجد طبيعة وانشراح خاص لا

يضاهى، كالذي يملكه بشرٌ متزنون في داوخلهم وسادة على بيوتهم الغنية جداً: على عكس أولئك الكتّاب، الذين هم أنفسهم يندهشون أكثر حينما يصبحون لامعين، ويتّسمون بشيء من الاضطراب واللاطبيعية. يذكّرنا صوتُ شوبنهاور قليلاً جداً بالعالِم الذي وهبته الطبيعة أطرافاً متصلّبة وصدراً ضيّقاً، والذي يتجوَّل بارتباك في حركة تعوزها الرشاقة أو في مشية متكلفة؛ بينما لا تعلمنا قسوة شوبنهاور وروحه المتجهمة إلى حد ما، من الجانب الآخر، الكثير كي نشعر بغياب المرونة والكياسة الفاتنة للكتاب الفرنسيين الجيدين، مثلما تعلمنا أن نكرهها. لن يجد أحدٌ لديه ذلك المقلد، كالفرنسية المزيفة المطلية بالفضة، التي يعول عليها الكتّاب الألمان كثيراً. يذكّرني أسلوب شوبنهاور في التعبير عن نفسه في أماكن مختلفة قليلاً بغوته، وإلاّ فإنّه لا يذكرني بأي نموذج ألماني على الإطلاق. لأنه يعرف، كيف يعبر الإنسان عن العميق ببساطة، والمؤثر بدون تورية، والعلمي الدقيق بدون حذلقة: فمِن أيِّ ألمانيٍّ أمكنه أن يتعلم هذا؟ إنّه متحرِّرٌ أيضاً من الأسلوب المتشنج والمداهن - وأسمح لنفسي بالقول - الأسلوب غير الألماني إلى حد كبير الذي يتصف به ليسنغ: الذي هو مفخرة كبيرة جداً؛ لأنَّ ليسنغ هو أكثر كتّاب النثر الألمان غواية. إنَّ أكبر إطراء يمكنني أن أقدمه عن أسلوبه الأدبي هو أن استشهد بجملة منه: "على الفيلسوف أن يكون صادقاً جداً لكي لا يستخدم بعض الأساليب الشعرية أو الخطابية لمساعدته". فأن يوجد الصدق، وأن يكون فضيلةً علاوة على ذلك، فإنما هو أمرٌ قد أصبح في عصر الرأي العام واحداً من الأفكار الخاصة الممنوعة؛ ولهذا فإنني لا أمدح شوبنهاور، بل أصفه حسب، حين أردد: إنَّه صادق حتى ككاتب؛

وإنه يوجد كتّاب قليلون جدا صادقون، بحيث أن على المـــرء أن لا يثق في الواقع بأيّ شخص يكتب. أنا أعرف كاتباً واحـــداً فقـــط، يمكنني أن أضعه من حيث الصدق عالياً في مستوى شـــوبنهاور، وفي الحقيقة أضعه حتى أعلى منه: مونتاني.[1] إن كتابة إنسان مثل هـــذا، زادت حقاً من فرحة العيش على هذه الأرض. منذ أن تعرفت علـــى هذه الروح القوية والحرّة، شعرت، على الأقل بإحساس يشـــبه مـــا شعره عن بلوتارخ: "نادرا ما القيت عليه نظرة، الاّ ونمت لي ساق أو جناح". سأراهن عليه، اذا حصلت على مهمة جعل العالم مريحا.

لدى شوبنهاور، علاوة على الصدق، سمة مشتركة اخرى مـــع مونتاني:، الفرح الذي يبهج حقاً: *مفرح للآخرين، وحكيم لنفسه*[2]. هناك نوعان مختلفان جداً من البهجة. ينشر المفكر الحقيقي، ســـواء كان جاداً أو ساخراً، البهجة والحياة دائماً، ويعـــبر عـــن بصـــيرته الإنسانية أو حلمه الإلهي؛ بدون إيماءات متبرمة، ويدين مـــرتجفتين أو عينين دامعتين، بل بثقة وبساطة، وشجاعة وقوة، ربما بشهامة قليلة، وبصرامة، لكن في كل الأحوال كمنتصر: وهذا هو ما يفرح المـــرء بعمق كبير- أن تشاهد هذا الإله المنتصر وسط كل هذه الوحـــوش، التي كافح ضدها. إنّ البهجة التي يواجهها المرء أحياناً عند الكتّـــاب المتوسطين والمفكرين المحدودي التفكير، تجعلنا نشعر بالبؤس عنـــدما نقرأ: هكذا أثّرت مثلاً "بهجة" ديفيد فرديريك شتروس بـــي. يشعر المرء بعار سافر أن يكون بنفس الوقت مع هذا النوع من البهجـــة،

---

(1) ميشيل دي مونتياني (1533–1592) أحد العلماء الإنسانيين الفرنســـيين الكبار في عصر النهضة.

(2) اصلا باللاتينية: *Aliis laetus, sibi sapiens*

لأنه يفضحنا ويفضح عصرنا للأجيال القادمة. هـؤلاء المفكـرون الفرحون لا يرون إطلاقاً العذابات والوحوش الـتي يـدّعون أنّهـم كمفكرين يروها ويقاتلوها: والسبب أن بهجتهم تبعث الغيظ هي أها تخدعنا. إها تريد غوايتنا للاعتقاد بأن نصراً قـد تحقـق. لكـن في الأساس توجد الفرحة فقط حيثما يوجد الانتصار؛ وهذا ينطبق على أعمال المفكرين الحقيقيين تماماً مثلما ينطبق على كـل نـوع مـن الأعمال الفنية. دع محتواه يكون مرعباً وجدياً أيضاً كما هي قضـية الحياة ذاها: سينتج العمل تأثيراً أليماً وكئيباً إذا نفث نصف المفكـر ونصف الفنان بخار عجزه عليه فقط. لا يمكن أن يحصل الإنسان على شيء أفضل وأحسن من أن يكون قريباً من أحد المنتصرين، الـذين تجعلهم أفكاره العميقة أن يحبوا ما هو أكثر حيوية، والـتي تجعلـهم حكمته يبحثون عن الجمال. إهم يتحدثون بصدق، إهم لا يتلعثمون ولا يثرثرون حول ما سمعوه؛ إهم ينشطون ويعيشون حقاً، وليسـوا البشر المقنعين الغامضين الذين تعودوا العيش؛ ولهذا فإننـا نشـعر في حضرهم أننا مرة واحدة بشرٌ وطبيعيون، وتكون لدينا رغبة أن نعلن مع غوته: "كم هو مجيد ونفيس المخلوق الحي! كم هو متكيف جيداً للظروف التي يعيش فيها، كم هو حقيقي، كم هو مليء بالوجود!

لم أصف سوى الانطباع الفيزيولوجي الصـافي الأول، الـذي تركه شوبنهاور عليّ؛ كيف تدفقت الطاقة الداخليـة إلى الخـارج وانتقلت من إحدى نبتات الطبيعة إلى أخرى عند أول وأخف لمسة؛ وعندما قمت بعد ذلك في تحليل الحادثة بأجزائها فـإنني أرى أهـا تتكون من ثلاثة عناصر؛ الانطباع عن صدقه، بهجته ورسوخه. إنـه صادق لأنه يتحدث ويكتب لنفسه ولذاته، ومبتهج لأنه انتصر بفكره

على أصعب مهمة، وراسخ لأنه كان مجبراً على أن يكون كـــذلك. قوته تصعد مباشرة وبهدوء إلى الأعلى كلهيب في جو هادئ رصـــين دون تأرجح واضطراب. إنه يجد طريقه مهما يكن الأمـــر، دون أن نلاحظ أنه كان يبحث عنه؛ إنه يمضي قُدماً بثبات ورشاقة كما لـــو كان محكوماً بقانون الجاذبية. وكلّ من كانت له فكرة حول مـــاذا يعني العثور وسط قنطورات وكِمّيرات[1] عالمنا المعاصر على كـــائن طبيعي كامل، بلا إبهام، غير متعصب، جموح، تحركه قـــوى ذاتيـــة ويتحرك بقوى ذاتية، سيفهم سعادتي ودهشتي عندما عثـــرت علـــى شوبنهاور: لقد أحسست أنه كان المربـــي والفيسلوف، الذي كنت أبحث عنه منذ فترة طويلة. لكنني اكتشفته على شكل كتاب فقـــط، وكان ذلك قصوراً كبيراً. وعلى الرغم من هذا بذلت كل الجهد كي أرى عَبر الكتاب وأتخيل الإنسان الحيّ، الذي عليّ قـــراءة وصـــيته العظيمة، والذي وعد أن يجعل ورثته فقط أولئك الـــذين يريـــدون ويتمكنون من أن يكونوا أكثر من مجرد قرّاء: أعني أبناء وتلاميذ.

---

(1) كائنات خرافية.

3

تكون للفيلسوف قيمة عندي بمقدار ما يكون قادراً علـــى أن يكون مثالاً لي. وسيكون بإمكانه عند تحوله إلى مثال أن يكسب بلا شك شعباً خلفه؛ كما يبيّن ذلك تاريخ الهند، الذي هو تقريباً تاريخ الفلسفة الهندية. لكن ينبغي أن يدعم هذا المثال بحياتـــه الخارجيـــة، وليس في كتبه فقط- بالطريقة التي علّم بها الفلاسفة الإغريق، مـــن خلال مسلكهم؛ ما لبسوا وأكلوا، وأخلاقهم، وليس من خلال مـــا قالوا. كم تنقصنا تماماً هذه الشجاعة الملموسة للحياة الفلســـفية في ألمانيا! هنا يتحرر الجسد ببطء كبير، بفترة طويلة بعد تحرير الـــروح؛ لكنه مجرد تصور خادع أن تكون الـــروح حـــرّة مســـتقلة، إذا لم يظهر انتصارها على كل العوائق - الذي هو في الأســـاس قصـــور ذاتي إبداعي - كل يوم من الصباح حتى المساء، في كل لمحة وفي كل خطوة. بقي كَانت متمسكاً بالجامعة، وخضع إلى قوانينها، وتمســـك ظاهرياً بالإيمان الديني، تحمّل العيش بين زملائه وطلبته: ولهذا فمـــن الطبيعي أن ينتج نموذجه، قبل كل شيء، أساتذة جامعيين وفلســـفة

أستاذية[1]. كان صبر شوبنهار قليلاً مع الطبقة المتعلمة، اعتزل عنها وسعى كي يكون مستقلاً عن الدولة والمجتمع ليتحرر من الاعتبارات السطحية- هنا بالذات فانه مثال، نموذج. ما تزال مراحل عديدة في إنعتاق الحياة الفلسفية مجهولة بين الألمان، مع انها لن تكون قادرة على البقاء مجهولة دائماً. يعيش فنانونا بجرأة وصدق أكبر من فلاسفتنا؛ وأقوى مثال على ذلك موجود بيننا هو ريشارد فاغنر. إنه يبين أن على العبقري أن لا يكون خائفاً ليقف موقفاً عدائياً إلى أبعد حد ضد النظام والأشكال القائمة، إذا أراد أن يكشف النظام العالي والحقيقة اللذين يعيشان في أعماقه إلى النور. لكن هذه "الحقيقة"، التي يتحدث عنها أساتذتنا كثيراً جداً، تبدو أن تكون كائناً أكثر تواضعاً، الذي لا ينبغي على المرء أن يخاف منه فوضى أو أمراً استثنائياً: إنها مخلوق مقتنع ذاتياً وسعيد، الذي تطمئننا عنه الهيئات القائمة مرة تلو الاخرى. لا أحد ينبغي أن ينزعج منا، لانها برغم كل شيء، مجرد "علم خالص." وبالتالي فما حاولت قوله هو أن على الفيلسوف في ألمانيا أن ينسى أكثر فأكثر، كيف يكون الإنسان "عِلماً خالصاً". ولهذا الهدف بالذات يمكن أن يخدم شوبنهاور الانسان كمثال.

لم يكن الأمر، مع ذلك، أقل من معجزة، إنه كان قادرا على ان يصبح هذا المثال الإنساني. لأنه كان مطوقاً بمخاطر داخلية وخارجية مرعبة، التي كان بإمكانها سحق وتمزيق أيّ كائن ضعيف. يبدو لي أن هناك احتمالاً قوياً أن شوبنهاور الانسان كان على وشك الهلاك فيترك خلفه في أفضل الأحوال بقية منه، أعني، "العلم الخالص". لكن

(1) ترجمة لـ professorial philosophy

هذا أيضاً في أفضل الأحوال فقط؛ لأنّ الإحتمال الأكبر، أنه لا الإنسان أو العلم سيمكنهما البقاء على الحياة.

منذ عهد قريب وصف رجل إنكليزي أكثر الأخطار الطبيعية التي تواجه الأشخاص الاستثنائيين الذين يعيشون في مجتمع ملتزم بالعُرف: "تصبح هذه الشخصيات الغريبة أولاً محطمة، ثم كئيبة، بعدها مريضة وفي النهاية تموت. لم يكن ممكناً أبداً لإنسان مثل شللي العيش في إنكلترا: وسيكون ظهور ذرّية من الشلليين[1] مستحيلاً."[2] إن هولدريننا، وكلايستيينا وعديدين، عديدين آخرين، هلكوا بسبب استثنائيتهم و لم يتمكنوا تحمّل أجواء ما يسمى الثقافة الألمانية؛ فقط كائنات حديدية مثل بيتوفهن، غوته، شوبنهاور وفاغنر كانت قادرة على الصمود. لكن المرء يرى أيضاً في العديد من ملامح وتجاعيد وجوههم آثار الصراع الشاق الذي كان عليهم الانخراط فيه: إنهم يتنفسون بصعوبة وأصواقم بالكاد تسمع. قال دبلوماسي مجرِّب تمكن أن يحصل على انطباع عابر عن غوته، إلى أصدقائه: -
"voila un homme, qui a eu de grands chagrins!"
- التي ترجمها غوته بنفسه كما يلي: "ثمة إنسان قاسى كثيراً في حياته" وأضاف: "إذا لا يمكن محو آثار المعاناة التي تحملناها والأفعال التي أنجزناها من على ملامح وجوهنا، فليس من المستغرب، أن يحمل كلّ ما تبقى منا ومن جهودنا نفس الآثار." وهذا هو غوته، الذي

---

(1) نسبة إلى الشاعر البريطاني شللي.
(2) من المحتمل ان نتشه استشهد بها من ذاكرته لانها ليست صحيحة تماما، وهي مأخوذة من:
WalterBagehot's: Physics and Politics. Bagehot referes to New England, not England

يشير إليه ضيقو الأفق المتعلمون[1] باعتباره أسعد الالمان لكي يبرهنوا بهذا، أن من الممكن أن يجدوا مع ذلك السعادة بينهم- بما معناه، أن ايّ شخص يشعر بالعزلة والتعاسة بينهم لا يلوم إلاّ نفسه. من هـذا الافتراض استخلصوا ومنحوا عقيدتهم القاسية تعبيراً عملياً وهو أنه إذا كان هناك شخص منعزل فلأنه يخفي إثماً سرياً. وبهذا حمل شوبنهاور المسكين هذا الذنب الخفي في قلبه، أي أن يضع فلسفته أعلـى مـن معاصريه؛ يضاف إلى تلك المصيبة، أنّه كان بسبب غوتـه بالـذات مدركاً، أن عليه لكي يضمن بقاء فلسفته بأيّ ثمن أن يدافع عنها ضد تجاهل معاصريه؛ لانه يوجد في الواقع نوع من رقابة محاكم التفتيش، التي كان فيها الألمان، طبقاً لغوته، موهوبين جداً: تسمى- الصـمت المنيع. ولهذا السبب فقد تم تحويل الجزء الاكبر مـن الطبعـة الأولى لعمله الرئيسي إلى ورق مهمل. ولّد الخطر المحدق بـأن لا يكـون جهده الكبير ذا طائل، لتجاهلهم أيّاه، في نفسه اضطرابا مخيفا بالكاد التحكم فيه؛ لم يظهر مناصر واحد من أي نوع. ومن المحزن أن تراه يتصيد أيّة علامة اعتراف؛ وصرخته الأخيرة، نعم فرحته العالية المبالغ بها، بأنه سيكون مقروءاً فعلاً (لقد قُرئتُ، ينبغي قراءتي)[2]، أمر مؤثر ومؤلم في آن واحد. كلّ السمات التي يعرضها، التي هـي ليسـت لفيلسوف عظيم، تكشف لنا سمات إنسان متألم خائف علـى أمـن ممتلكاته الثمينة؛ هكذا كان يعذبه قلق فقدان ثروته المتواضعة، وبالتالي لم يكن قادراً ربما على التمسك بموقفه القديم النقي والحقيقي تجـاه

(1) المتعلمون يمكن ترجمتها إلى المثقفين أو المتحضرين وتجنبا لما تحمله هاتين العبارتين من معاني لدى القارئ العربـي فقد فضلت مفردة متعلم.

(2) ترجمة (Legor et legar)

الفلسفة؛ غالباً ما أخطأ في رغبته العميقة لإقامة صداقات صادقة غير مشروطة وودية، وتوجب عليه مراراً العودة بنظرة ذليلة إلى كلبه المخلص. كان وحيداً تماماً؛ لم يكن عنده أصدقاء حقيقيون يضاهونه، الذين يمكنهم مواساته - وهناك بين الفرد واللاأحد يوجد اللانهائي، كما هو الأمر دائماً، بين الأنا واللاشيء. ليس هناك من عنده اصدقاء حقيقيون يعرف ما هي العزلة، حتى ولو كان العالم كلّه ضده- يا للحسرة، أشعر، أنكم لا تعرفون ما هي العزلة! في كل مكان، حيثما وجدت مجتمعات ضخمة، حكومات، أديان، آراء عامة، باختصار: حيثما ساد استبداد، كان الفيلسوف المنعزل مكروهاً؛ لأنَّ الفلسفة تمنح البشرية ملاذاً لا يمكن للطاغية اختراقه، كهفاً داخلياً[1]، متاهة القلب: وهذا ما يغيض المستبدين. هناك يختبئ البشر العُزّل: لكن هناك أيضاً تكمن مخاطرهم الكبيرة. فهؤلاء البشر الذين طلبت حريتهم الملاذ في أعماقهم، توجب عليهم أيضاً العيش في الخارج وأن يكونوا ظاهرين ومرئيين؛ أن لديهم علاقات عديدة مع الناس الآخرين من خلال الدم، الإقامة، التربية، الوطن، الصدفة، غرباء متطفلين؛ بنفس الوقت توجد أفكار لا حصر لها، يرجح المرء أنهم يتفقون معها، لأنها ببساطة هي الأفكار السائدة؛ كلّ لمحة لا تبدو رافضة تعتبر موافقة؛ وتؤول كل حركة يد لا تخرّب شيئاً قبولاً.

تعرف هذه الأرواح الحرة والمنعزلة، أنها تظهر دائماً بهذه أو تلك الطريقة مختلفة عمّا تفكر: إنها لا تتمنى شيئاً آخر أكثر من الصدق والحقيقة، إلاّ أنها طوقت بشبكة من سوء الفهم؛ ولا تستطيع أمنيتهم المتحمسة أن تمنع إخفاء كلّ ما يقومون به بغلالة من آراء

---

(1) أي في الاعماق.

مزيفة، من التكيّف، تنازلات نصفية، موارات حذرة وتأويلات خاطئة. ولهذا يرى المرء غيمة كئيبة كالحة على سيمائهم. فهذا النوع من البشر هم والحق أسوأ من الموت، بحيث يكونوا مضطرين على التظاهر؛ سخطهم المتواصل على هذا الإكراه يجعلهم غاضبين وخطرين. إنهم يثأرون لأنفسهم بين فترة وأخرى عن اختفائهم القسري وتحفظهم الإجباري. فيخرجون من مخابئهم وعلى وجوههم تعبير مرعب؛ كلماهم وأفعالهم متفجرات، ويمكن أن تؤدي إلى تدمير أنفسهم. هكذا عاش شوبنهاور تماماً في وسط مخاطر من هذا النوع. إن أمثال هؤلاء البشر العزّل بالذات بحاجة إلى الحب، والأصدقاء- الذين يمكنهم أن يكونوا صريحين وصادقين معهم كما اتجاه أنفسهم- أصدقاء تكف في حضرتهم حالة الكتمان والرياء القسري. ابعدْ هؤلاء الأصدقاء عنك سيكون الخطر أكبر؛ هلك هنريش فون كلايست بسبب النقص لهذا الحب. أكثر الأساليب المرعبة لمكافحة البشر الاستثنائيين هي أن تجبرهم على الانغلاق على أنفسهم، فيتحولون إلى حمم بركان في كل مرة يظهرون إلى العلن ثانية. مع ذلك سيكون هناك على الدوام نصف إله يمكنه أن يعيش- وينتصر- في ظل ظروف مرعبة جداً؛ وإذا أردتم سماع أغنيته المتوحدة فانصتوا إلى موسيقى بيتهوفن.

ذلك كان الخطر الأول، الذي ترعرع شوبنهاور في ظلّه: العزلة. الثاني كان: اليأس من الحقيقة. صاحب هذا الخطر كلّ مفكر تكون نقطة انطلاقه فلسفة كَانت، شريطة أن يكون إنساناً قوياً وكاملاً بمعاناة ورغبات، وليس بجرد مفكر قعقاع وآلة حساب. ولكننا جميعاً نعرف جيداً كم هو محزن مثل هذا الاشتراط؛ ويبدو لي كما لو أن كَانت كان

له تأثيرٌ حيّ ومغيّر للحياة على أفراد قليلين جداً فقط. يسمع المرء في كلِّ مكان بالطبع، أن هذا الباحث الكتوم أحدث ثورةً في كل حقول الروح؛ لكنني أجد صعوبة للاعتقاد بذلك. لأنني لم أتمكن من رؤيتها في هؤلاء البشر، الذين كان ينبغي تثويرهم قبل الحديث إطلاقاً عن أي تثوير في مجالات الروح. إذا كان كَانت سيشرع بممارسة تأثير أوسع، لأمكننا ملاحظة هذا في شكل نسبية وشكوكية[1] قارضة ومتفسخة؛ وستظهر الصدمة واليأس تجاه كل الحقائق عند أكثر الأرواح حيوية ونبلاً حصرا، التي لم تكن قادرة أبداً على العيش في حالة من الشك، كما حصل عند هنريش فون كلايست نتيجة لتأثير الفلسفة الكانتية عليه. يكتب (كلايست) بطريقته الخاصة المؤثرة: "تعرفت منذ فترة قصيرة على فلسفة كَانت؛ وعليّ أن أخبركم الآن عن واحدة من أفكاره، بما أنني لا أخاف أن تهزكم بعمق وألم، كما هزتني- لا يمكننا أن نقرر فيما إذا كان ما نسميه حقيقة، هو في الواقع حقيقة، أو أنها تبدو كذلك لنا فحسب. فإذا كانت الثانية، فإن الحقيقة التي نجتمع حولها هنا غير موجودة بعد الموت، وكل مساعينا للحصول على ممتلكات يمكننا أن نأخذها معنا إلى القبر هي عبث - وإذا كانت هذه الفكرة لا تتغلغل في قلبك، فلا تضحك من شخص يشعر أنها جرحته في الجزء الأعمق والأكثر قدسية في وجوده. إن هدفي العظيم الوحيد تلاشى، وليس عندي غيره."[2] متى يشعر البشر بالفعل ثانية بصورة طبيعية ككلايست، متى يتعلمون ثانية أن تكون علاقتهم بالفلسفة "بما هو أعمق وأقدس" ما فيهم؟ وعلاوة على ذلك ينبغي أن نفعل هذا إذا

(1) نسبة إلى الشك.
(2) من رسالة إلى ويلهلمينه فون زينجه في 22 إذار 1801.

كان علينا فهم ماذا يمكن أن يكون شوبنهاور بالنسبة الينا بعد كَانــت- أعني المرشد الذي يقودنا من أعماق الكآبة الشكّاكة أو التنازل النقــدي إلى أعالي التأمل التراجيدي، إلى السماء الليلية ونجومها المنتشرة بلا نهايــة فوقنا، المرشد الذي كان نفسه الأول الذي سلك هذا الطريق. تكمــن عظمته في أنه وضع أمامه لوحة الحياة بكمالها لكي يفسرها كاملة؛ بينما حتى أكثر العقول حدّة لم يمكن ثنيها عن الوقوع في الخطأ، إنــه يمكــن للمرء أن ينجز تفسيراً أكثر كمالاً لو أنه يبحث بدقة الألوان والمواد التي استخدمت في رسم اللوحة؛ ربما يصل إلى نتيجــة مفادهــا أنّ قمــاش اللوحة مصنوع بمهارة دقيقة، وأنه لا يمكن تحليــل تركيــب الألــوان الكيمياوي. على المرء أن يخمّن بنفس الوقت من هو الرّسام لكي يفهــم اللوحة- ذلك يعرفه شوبنهاور. ترى كل مجموعات العلم المختلفة مــع ذلك أن من مهامهم فهم الألوان والقماش ولكن ليس اللوحة؛ ويمكــن القول، إنه فقط ذلك الذي كان له رأي واضح عن اللوحة الكلية للحياة والوجود يمكنه استخدام إحدى العلوم دون أن يؤذي نفسه؛ فبدون مثل هذه اللوحة الشاملة المنتظمة ستكون هناك مسالك لا تؤدي إلى الهــدف أبداً، بل تجعل وحسب حياتنا أكثر إرباكــاً وتيهــاً. تكمــن عظمــة شوبنهاور إذن في أنه تعقّب هذه اللوحة كما تعقّب هاملت الشبح دون أن تصرف انتباهــه، كمــا يفعــل البــاحثون، أو يقــع في شــرك السكولاستيكة[1] التجريدية، الذي هو قدر الديالكتيكيين المتعصــبين. الشيء الوحيد الذي يجعل من دراسة أرباع وأنصاف الفلاسفة جذابــة هو تمكن المرء من أن يرى كيف يعثرون فوراً على الأماكن في صــروح

---

(1) السكولاستية؛ التمسك الشديد بالتعاليم والاساليب التقليدية الخاصــة بمذهب أو فرقة.

الفلسفات العظيمة، حيث يكون وجود الباحث المعارض أو المساند مسموحاً به، وحيث يتاح للمرء أن يتأمل، يشكّ ويعارض، ونتيجة لذلك يتملصون من الدعوة في كلّ فلسفة عظيمة، التي تقول ككلّ دائماً فقط: هذه هي لوحة لكل الحياة، استخدمها لكي تفهم معنى حياتك الخاصة. والعكس: "اقرأ فحسب حياتك وحاول انطلاقاً من ذلك أن تفهم هيروغلافيا الحياة العامة". هكذا ينبغي على الدوام تأويل فلسفة شوبنهاور في بادئ الامر؛ فردياً، من قبل الفرد وحده فيما يتعلق بحياته هو ليحصل على تصور عن معاناته الخاصة وحاجاته، وعن حدود إمكاناته، وليعثر على اجراءات مضادة وتعاز: أن يضحي بحياته، الإذعان لأنبل الأهداف، أولاً وقبل كل شيء العدالة والرحمة. يُعلمنا شوبنهاور أن نميز بين الأشياء التي تحثّ حقاً على سعادة الإنسان وتلك التي تفعل ذلك ظاهرياً فقط. إنه يعلمنا أنّه لا الثروة، ولا السمعة أو التعليم يمكنها أن تنقذ الفرد من اليأس العميق الذي يحسه بسبب تفاهة وجوده؛ وأنّ كلّ سعي نحو هذه القيم تكسب معنى فقط إذا تم إخضاعها إلى أنبل وأسمى الأهداف: أن نربح القوة لكي نستخدمها لمساعدة الطبيعة لفترة وأن نصحِّح قليلاً من حماقتها وسماجتها. في البداية لنفسك فحسب، لكن في نهاية المطاف من أجل الجميع. سيؤدي هذا المسعى في الحقيقة، إذا تم الإيمان به بصدق وبعمق إلى الاستسلام: ماذا وإلى أيّ حد يمكن للمرء أن يحسّن على الإطلاق في الفرد أو المجموع.

لو أننا طبقنا هذه الكلمات على شوبنهاور، فسوف نتلمس الخطر الثالث والأكثر صميمية في حياته، والذي تشرّب في كلّ نسيج وكلّ عظم في كيانه. يواجه كلُّ إنسان عادةً قصوراً في إمكانياته الشخصية، سواء فيما يتعلق بمواهبه أو إرادته الأخلاقية، التي تملأه

بالحنين والكآبة؛ وكما يجعله شعوره بالإثم يتوق إلى المقدس، فإن لديه كمخلوق مفكر على هذا النحو رغبة عميقة نحو العبقرية. هذا هو أصل كل ثقافة حقيقية؛ وعندما أعرِّف الثقافة باعتبارها توق الإنسان كي *يولد من جديد* كقديس وكعبقري، فأنا أعرفُ أن المرءَ ليس بحاجة لأن يكون بوذياً كي يفهم هذه الأسطورة. فحيثما نلتقي بموهبة خالية من هذا التوق سواء بين العلماء أو ما يسمّى المتحضّرين، فإننا نشعر بنفور وكراهية، لأننا ندرك أنّ بشراً كهؤلاء، بالرغم من كلّ روحيتهم، لا يشجعون، بل يعيقون تطور الثقافة وولادة العبقرية - التي هي هدف كل ثقافة. إنها حالة من التحجّر مساوية في قيمتها للورع المقتنع ذاتياً، البارد، الروتيني الذي هو ايضا ابعد ما يكون عن المقدس الحقيقي ويحافظ على نفسه بعيدا عنه. ثمة ثنائية غريبة وخطرة جداً في طبيعة شوبنهاور. قلّة من المفكرين شعروا بنفس القوة واليقين، أنّ العبقري يتحرك في أعماقهم؛ وأن عبقريته وعدته بمنزلة أعلى- بحيث لن يظهر أبداً أخدودٌ أعمق من الأخدود الذي كانت تحرثه سكين محراثه في أرض البشرية الحديثة. على هذا النحو كان نصف من كيانه راضياً ومليئاً، دون شره، واثقاً بقدراته: كذلك أتّم بظفرعمله بعظمة ونبل. النصف الآخر شغله طموحٌ متّقد؛ الذي باستطاعتنا فهمه، عندما نسمع أنه ابتعد بانطباع مؤلم عن صورة لمؤسس الترابا[1] العظيم، رانسيه[2]، وقال: "إنها نعمة إلهية". ذلك أن العبقريَّ عنده توق أعمق نحو المقدس، لأنه رأى من موقع مناسب بوضوح أبعدَ وأكبر من

---

(1) هي دير التي منها استمد النظام الترابوري اسمه.وهي حركة اصلاحية دينية بدأت في فرنسا قادها دي رانسيه *al Tarappe*.

(2) أرمان جان بوثلير دي رانسيه الذي ولد في 9.1.1626 باريس.

الآخرين، رأى المصالحة بين المعرفة والوجود، حدق في مملكة الإرادة المقهورة والسلام، نظر إلى ذلك الساحل الآخر الذي يتحدث عنه الهنود. لكن هنا تماماً نعثر على المعجزة: كم كانت شخصية شوبنهاور كاملة بصورة لا تصدق وصلبه، عندما لم يكن ممكناً تحطيمها حتى بواسطة هذا الحنين ولم تتحجر رغم ذلك بسببه! ماذا يعني ذلك، كلّ فرد سيفهم حسب ماذا وكيف يكون: لا أحد منّا سيفهم هذا ابدا.

كلما تأمل المرء بهذه الأخطار الثلاثة أكثر، أصبح مدهشاً كم كان شوبنهاور مسلحاً جيداً لحماية نفسه منهم وخرج من المعركة سالماً ومهيباً.

لكن مع ذلك ليس دون ندوب وجروح مفتوحة؛ ربما كان شديداً بعض الشيء أحياناً في جو معاد تماماً. لكن حتى أعظم الناس لا يمكنه الارتقاء إلى مثاله. ليس هناك أي شك أن يكون شوبنهاور مع ذلك مثالاً على الرغم من وجود كل تلك الندوب والخدوش. ويمكننا القول إن ما كان ناقصاً في طبيعته ومفرطاً في إنسانيته يجعله أقرب، بمعنى إنساني، قريباً إلينا، لأننا ننظر إليه كإنسان يعاني وكرفيق متألم وليس مجرد عبقرية رفيعة رافضة.

هذه الأخطار الأساسية الثلاث التي هددت شوبنهاور تهددنا جميعاً. كلُّ واحد منّا يحمل ماهية منتجة في أعماقه باعتبارها جوهراً لوجوده؛ إن الذي يكون واعياً لهذه الماهية، سيشع بهالة غريبة، بسناء مما هو استثنائي. لا تطيق الغالبية هذا الأمر، لأنها كما أشرت، كسولة، ولأن عدداً من الصعوبات والأعباء تصاحب كل ماهية. ليس هناك شك لو أن الإنسان الاستثنائي يحمّل نفسه هذا العبء الثقيل، فستفقد الحياة كلّ ما يتمناه المرء منها في شبابه: الفرح،

الأمان، الراحة والكرامة: عبء العزلة هو الهدية التي يقدمها رفاقه البشر إليه؛ المكافأة هي حتما جولةُ صحراء ووجود مغارة، بغض النظر عن أين يعيش. عليه أن يحترس الآن بحيث لا يصبح مستعبداً ولا أن يصبح كئيباً وسوداوياً. ولهذا عليه أن يحيط نفسه بنماذج من مكافحين شجعان وصالحين، كما كان شوبنهاور. لكن حتى الخطر الثاني الذي هدد شوبنهاور لم يكن استثنائياً بخاصة. يصادفنا أحياناً شخصٌ وهبته الطبيعة حدَّة البصيرة، وترغب أفكاره التحرك على مسار الثنائية الديالكتيكية، وسيكون من السهل لو أنه أطلق العنان لموهبته دون سيطرة، أن يهلك كإنسان ويعيش حصراً حياة أشباح تقريباً في "العلم الخالص": أو ربما يصبح، لأنه تعوّد على أن يوازن بين المعَ أو الضد في كل الأشياء، غاضباً من الحقيقة، وأن يرى نفسه محالاً إلى العيش بدون شجاعة وثقة، رافضاً، شاكّاً، متألماً وساخطاً بنصف أمل وقناعة راسخة بأنه سيصاب بالخيبة: "حتى الكلب لا يرغب أن يعيش هكذا!" الخطر الثالث هو التحجّر الفكري أو الأخلاقي؛ حيث يقطع الإنسان الروابط التي تشدّه بمثاله؛ إنه يكفّ عن أن يكون مثمراً وأن ينتشر في هذا أو ذاك المجال، ويصبح بالمعنى الثقافي ضعيفاً أو عديم الفائدة. تصبح ماهية وجوده وحدة غير قابلة للتجزئة وغير مفهومة، حجرة جليدية. وعلى هذا النحو يمكن للمرء أن يهلك بسبب خاصيته كما بسبب الخوف من أجلها، يهلك بسبب نفسه أو عند التخلي عن ذاته، من الإلهام أو التحجّر: أن تعيش يعني أن تكون في خطر دائم.

إضافة إلى تلك الأخطار الفطرية، التي كان يمكن أن يتعرَّض لها شوبنهاور، بغض النظر عن أي عصر عاش فيه، وجدت هناك أيضاً

مخاطر تعود إلى *العصر*، الذي عاش فيه: وهذا التمييز بين المخاطر الفطرية وتلك الأخطار الناشئة عن الزمن الذي عاش فيه أمر جوهري، إذا أراد المرء أن يفهم النموذجي والتربوي في طبيعة شوبنهاور. دعونا نتصور الطريقة التي ينظر فيها الفيلسوف إلى الوجود؛ إنه يريد إعادة تقييم قيمته. وكانت مهمة كل المفكرين العظام الحقيقية هي أن يحددوا هدفاً لكل شيء. إلى أي حد ستتعرقل مهمته حين يكون البشر الأكثر قرباً إليه ثماراً ضعيفة ومنخورة! كم ينبغي عليه أن لا يساهم في تفاهة عصره، إذا أراد أن يكون عادلاً تجاه الحياة كما هي. إذا كان التخصص في ماضي التاريخ أو الأمم الأجنبية له أية قيمة، فإن له أكبر قيمة عند الفيلسوف الذي يريد الوصول إلى إصدار حكم عادل على كل المصير الإنساني- أي، ليس فقط على مصير الإنسان العادي، بل في معظم الأحوال على أعلى مصير يمكن أن يصيب الأفرادَ أو دولاً كاملة. لكن كل شيء معاصر لجوج؛ إنه يؤثر ويوجه العين حتى لو أن الفيلسوف يحاول تجنب ذلك؛ يحصل العصر إلزامياً في المحصلة النهائية على معنى كبير. ولهذا السبب على الفيلسوف أن يكون قادراً على رؤية الفرق بين زمنه والعصور الأخرى، وحين ينتصر على عصره في ذاته، فإن عليه أيضاً أن ينتصر عليه في لوحته عن الحياة، أي يجعلها غير مرئية كما لو أنه رسم عليها. وهذه مهمة صعبة، مهمة مستحيلة تقريباً. إن حكم الفلاسفة الإغريق القدماء على قيمة الوجود له وزن أكبر بكثير من الحكم المعاصر لأنهم عاشوا حياةً مزدهرةً تماماً، ولأن عقولهم، بخلافنا، لم تكن مشوشة بسبب الانشطار بين الرغبة إلى الحرية، الجمال، والعظمة من جهة، ومن الجهة الأخرى الحافز نحو الحقيقة،

الذي يسأل فقط: "ما هي *القيمة* الحقيقية للوجود إجمالاً؟" سيكون من المفيد دائماً معرفة ما قاله إيمبيدوكليس عن الوجود، لأنه عاش وسط ثقافة يونانية تفيض بفرح الحياة المندفع والقوي؛ حكمه له وزن، خصوصاً، لأنه لم يعارضه أحد من الفلاسفة الكبار لتلك المرحلة الرائعة. إنه يقولها بوضوح أكبر فحسب، لكن في الأساس يمكن للمرء – إذا صغى باهتمام– يسمعهم يقولون نفس الشيء. سيكون دائماً لدى المفكر المعاصر، كما أشرت، أمنية غير متحققة: إنه يطلب أن يبيّن له المرء أولاً الحياة،– حياة معافاة، حمراء، وحقيقية، قبل أن يصدر حكمه: وسيعتبر هذا ضرورياً لنفسه على الأقل بأن يكون إنساناً حيّاً قبل أن يسمِّي نفسَه حاكماً عادلاً. هذا هو السبب أنهم بالضبط الفلاسفة الأكثر حداثة الذين يحتلون مكانة بين أقوى المناصرين للحياة، والإرادة للعيش، والسبب أنهم يتوقون الابتعاد عن عصرهم إلى ثقافة، إلى مادة في هيئة جديدة. هذا التوق يشكل بنفس الوقت مع ذلك *هاويتهم*؛ فثمة صراع في داخلهم بين مصلح الحياة وبين الفيلسوف، أي قاضي الحياة. وبغض النظر عن من هو المنتصر، فسيكون انتصاراً يتضمن خسارة. كيف إذن تجنب شوبنهاور هذا الخطر أيضاً؟

بما أن المرء يريد اعتبار كل البشر العظماء أبناء حقيقيين لعصرهم، بما أنهم يقاسون في كلِّ الاحوال في ظل ضعفهم أقوى وأعمق من كلّ البشر الصغار، فإن صراع الإنسان العظيم ضد عصره على ما يبدو مجرد صراع مدمر ولا معنى له ضد نفسه. لكن ذلك ظاهرياً فقط: لأنَّ ما يكافحه في عصره هو ما يعيقه من أن يكون عظيماً، مما يعني في حالته، أن يكون حراً وذاته بصورة كاملة. ينتج

عن هذا أن غضبه موجه في الأساس فقط تجاه شيء هو في الحقيقة ليس جزءاً من نفسه، بالرغم من أنه يوجد فيه حقاً، بل ضد المزيج الملوث من عناصر ثابتة ومتنافرة، الزيف في ربط الراهن بما هو لديه للازمني؛ وتكون المحصلة أن الطفل المفترض لعصره لم يكن إلاّ *طفل من زواج سابق*. وهكذا فقد كافح شوبنهاور منذ وقت مبكر من شبابه ضد تلك الأم المزيفة، الغاوية والمنحطة، عصره، ويمكن القول إنّه حالما تخلص منها، نقّى وبرّأ وجوده وأعاد اكتشاف نفسه في صحته ونقائه. ولهذا ينبغي أن تستخدم كتابات شوبنهاور كمرآة لعصره؛ ولا يعزى هذا إلى عيب في المرآة بالتأكيد إذا ما بدا عصره كمرض مشوه قبيح، هزيل وشاحب، بعينين فارغتين وملامح وجه متعبة - التي كانت دائماً علامات بيّنة لمعاناة طفل الزوجة. كان التوق عنده نحو طبيعة قوية، نحو إنسانية أبسط وأكثر عافية، هو توق إلى ذاته؛ فحالما انتصر على عصره في نفسه، كان عليه أيضاً بدهشة رؤية العبقري في نفسه. انكشف له سرُّ وجوده الآن، نية زوجة أب العصر لإخفاء عبقريته عنه، تم إحباطها، لقد اكتشف مملكة *المادة* المتحوّلة. وعندما طرح بعد ذلك بشجاعة السؤال: "ما هي القيمة الحقيقية للحياة؟"- فما عاد عليه أن يقاضي حياة غامضة منافقة لعصر مشوش وشاحب. كان يعرف جيداً، أنه يمكن للإنسان أن ينال شيئاً أسمى وأنقى على هذه الأرض مما عرضته له الحياة في عصره، ولهذا سيكون الإنسان ظالماً تجاه الوجود إذا هو عرفه وقيّمه فقط بهذا الشكل القبيح. كلاّ، الآن يستدعي العبقري ذاته، ثمرة الحياة الأسمى، لكي نسمع عمّا إذا يمكنه تبرير الحياة؛ على الإنسان الخلاّق، المنير أن يجيب على السؤال: "هل يمكنك من كلِّ قلبك أن

تقول نعم لهذه الحياة؟" هل هي كافية لك؟ هـــل تريـــد أن تكـــون محاميها ومحررها؟ فالأمر يتطلب بمجرد نعم صادقة واحدة من فمك - وتكون الحياة مبرّأة من كل الاتهامات الخطيرة - "فماذا سيجيب؟- سيجيب كما إمبدوكليس.

4

ربما تكون هذه الإشارة غير مفهومة حتى الآن، ولهذا فإنني سأنتقل إلى شيء يكون مفهوماً إلى أقصى درجة، أي أن أوضِّحَ كيف يمكننا جميعاً استخدام شوبنهاور لتربيتِنا ضِدَّ عصرنا- فالفضل يعود اليه أنَّنا نعرف فعلاً عصرنا بأدق التفاصيل. مفترضين، وبدقة أكبر، أن ذلك منفعة! ربما لا يكون هذا ممكناً بعد بضعة قرون. أجد هذا ممتعاً للتأمل حول فكرة أنَّ البشرية قد تتعب عاجلاً في وقت ما من القراءة وأن الكتّاب سيفعلون نفس الشيء أيضاً، بحيث إن العالِم سيوصي ذات يوم بإرادته الأخيرة وفي وصيته أن تدفن جثته مطوقة بكتبه وبكتاباته خاصة. وإذا بدأت الغابات بالاختفاء، ألم يحن الوقت بعد لاستخدام المكتبات كخشب وقش وبلاط؟ طالما أن أغلب الكتب ولدت من أبخرة ودخان الرؤوس، فيمكنها أن تتحول مرة أخرى إلى أبخرة ودخان. وإذا لم تشتعل فيها بعض النيران، فينبغي معاقبتها بالنار. وهكذا فمن الممكن أن يُعتبر عصرُنا بالضبط "عصراً مظلماً"[1] بالنسبة للزمن القادم؛ لأنَّ المرء

(1) اصلا باللاتينية.

أحرق بحماس خاص وإصرار منتوجاته. كنّا إذن محظوظين، لأنه أتيحت لنا فرصة التعرف على هذا الزمن. فإذا كان الاهتمام بعصرنا له أي معنى على الإطلاق، فيمكن للمرء إذن الاهتمام به قدر الإمكان بعمق، بحيث لا يكون لدى المرء أي شك حوله: وهذه الإمكانية بالذات منحنا ايّاها شوبنهاور.

كان يمكن أن نكون أكثر سعادة مائة مرة لو أن بحثنا أظهر أنه لم يوجد سابقاً على الإطلاق شيء واعد وراقي كعصرنا. يوجد بشر سذج في زاوية ما من العالم حالياً، في ألمانيا على سبيل المثال، يعتقدون بهذا الشيء، بل حتى إنهم مستعدون للذهاب إلى أبعد من ذلك، بحيث إنهم يؤكدون بكل جدية أنه تم تحسين العالم قبل بضعة سنين[1]، وأن الذي لديه تصورات قاتمة وثقيلة عن العالم دحضته "الوقائع". والحقيقة هي: أن تأسيس رايخ ألماني جديد هي ضربة حاسمة ومدمرة ضد كل فيلسوف "متشائم" - وهو أمر قاطع ومؤكد. إذا أراد المرء أن يجيب على السؤال حول ماذا يعني أن الفيسلوف مربّي في عصرنا، فإن علينا أن نقدم الردَّ التالي على وجهة النظر الشائعة جداً والسائدة في الجامعات: إنها فضيحة وعار، إن عبادة مقرفة ومرائية للزمن كإله يمكن أن يعبِّر عنها ويرددها كالببغاء ما يسمى بشر مفكرون محترمون- دليل على أننا لم نعد نملك أية فكرة عن المسافة الفاصلة بين جدِّية الفلسفة والجدِّية الموجودة في صحيفة. لم يفقد أمثال هؤلاء البشر البقية الأخيرة من الفلسفة فقط، بل وأيضاً أسلوب التفكير الديني، ولم يستبدلوها بالتفاؤل بل بالكتابة الصحفية، الروح ولا روح عصرنا وصحافتنا اليومية. يعتقد

(1) اي بتأسيس الرايخ في 1871.

كلّ فيلسوف أنّ قضية الوجود يمكن مقاربتها، ناهيك عن حلها، بواسطة حدث سياسي، هو فيسلوف زائف وصبياني. أقام الإنسان دائماً دولاً عديدة؛ وهذه قصة قديمة. كيف يمكن أن يكون التجديدُ السياسيّ كافياً مرة وإلى الأبد لجعل البشر سكاناً قانعين على الأرض؟ إذا كان أيُّ فرد يعتقد حقاً أن هذا ممكن، فإنّ عليه أن يتقدم إلى الامام: لأنه يستحق فعلاً أن يُصبح أستاذاً للفلسفة في جامعة ألمانية، مثل هارمس في برلين، يورغن ماير في بون وكارير في ميونخ.

نحن نعيش هنا نتائج العقيدة التي تمّ التبشير بها مؤخراً من فوق السطوح، أن الدولة هي أسمى هدف للإنسان، وأنه ليس لدى الإنسان واجب أسمى من خدمة الدولة: وأنا أرى في مثل هذه العقيدة لا عودة إلى الوثنية وحسب، بل إلى الغباء. ربما يحدث أنّ رجلاً يعتبر أنّ خدمة الدولة بمثابة واجبه الأعلى، لا يعرف في الحقيقة واجباتٍ أسمى؛ وواحد من هذه الواجبات، التي تبدو على الأقل لي أسمى من خدمة الدولة، هو واجب إزالة الغباء بكلّ أشكاله، الذي يتضمن من الطبيعي هذا النوع من الغباء أيضاً. ولهذا فإنني أتعامل هنا مع نوع من البشر، تتجاوز مفاهيمهم الغائية رفاهية الدولة، وأعني الفلاسفة. لكن فقط بعلاقتهم مع عالم، يكون من جانبه مستقلاً إلى حدٍّ ما عن الدولة، أعني الثقافة. من بين العديد من الحلقات التي يتم ربطها وتشكل بمجموعها اشكال المجتمع الإنسانية، بعضها من ذهب والآخر مزيف.

كيف ينظر الفيلسوف إلى ثقافة عصرنا؟ ينظر في كل الاحوال بصورة مختلفة تماماً عن أساتذة الفلسفة الراضين جداً عن دولتهم

الجديدة. وعندما يتأمل الاستعجال المألوف، الانحدار المتسارع لتوقف كلّ تأمل وبساطة، فإنه غالباً ما يفكر كما لو أنه يرى أعراض استئصال شامل للثقافة يتم معه قلع كل شيء من جذوره. تجف مياه الدِّين ويترك خلفه مستنقعات أو بركاً راكدة؛ تتفرق الأمم ثانية كأعداء وتتعطش إلى تمزيق بعضها البعض الآخر. تُفكّك العلوم التي تُمارس دون أي تحفظ وبموقف لاأبالي طائش تماماً، وتذيب كلّ ما كان يعتقده المرء ثابتاً؛ ويتم اكتساح الطبقات الاجتماعية المتعلمة والدول المتحضرة معها من قبل رأسمالية ضخمة كريهة. لم يكن العالم أكثر دنيوية[1] وأكثر فقراً في الحب والخير مما هو عليه اليوم. لم يعد المتعلمون منارات أو ملاذات وسط هذا الاضطراب للعلمنة؛ ففي كلّ يوم يمرّ يغدون أكثر اضطراباً وطيشاً وبلا حب. كلُّ شيء يخدم البربرية القادمة بما فيه فن وعلم عصرنا الحاضر. انحط الإنسان المتعلم[2] وتحول إلى أكبر عدو للثقافة، لأنه ينكر المرض الشائع ويقف عائقاً في طريق الأطباء. تسخط هذه المخلوقات البائسة الضعيفة، إذا ذكر لها أحد ضعفها وقاوم أرواحها الكاذبة المؤذية. سيفعلون كل شيء لكي يظهروا كما لو أنهم تجاوزوا كل العصور السابقة، ويتظاهرون ببهجة مثيرة للشفقة. قد يكون ثمة إثارة في الطريقة التي يتخيلون بها سعادتهم؛ لأنّ سعادتهم مبهمة تماماً. حتى إنه ليس لدى المرء رغبة في أن يطرح عليهم السؤال، الذي طرحه تانهاوسر على بيترولف: "ما الذي تمتعت به، ايّها المسكين؟" لأننا يا للحسرة! كلما نعرف أفضل، نعرف شيئاً آخر. يخيم علينا يوم شتائي، ونحن نقيم في

---

(1) ترجمة worldly.
(2) هنا يمكن ترجمتها "المتعلم، المتحضر، المثقف".

جبال عالية في خطر وعوز. قصيرة هي كل فرحة، وشاحبة هي كل أشعة شمس تنسلُّ إلينا على جبلنا الأبيض. فنسمع موسيقى رجل عجوز يعزف على آلته الوترية، والراقصون يتمايلون حوله - يهتز قلب الرحّالة بمشاعر حسّاسة حول المشهد: كلُّ شيء موحش، منطو على نفسه، بلا لون ولا أمل، فيسمع المرء وسط كلّ هذا صوت فرح، فرح عالي طائش! لكنَّ ضباب الليل المبكر إنسلّ إلينا للتو، تخمد النغمة؛ وخطوات الرحّالة تطقطق؛ إنه يرى، بالقدر الذي تتيح له الرؤية، وجه الطبيعة المقيت والمقفر فقط.

لو أنَّ التشديد على الخطوط الضعيفة والألوان الباهتة فقط في صورة الحياة المعاصرة ربما يكون وحيد الجانب، فإنّ الجانب الآخر لن يكون بأي حال من الأحوال أكثر إرضاء، بل أكثر مدعاةً للقلق فحسب. توجد هناك دون شك قوى، قوى عملاقة، لكنها وحشية، بدائية وظالمة. ينظر اليها المرء بإحساس خائف، يعتبرها كالمرجل في مطبخ الساحرة: في كل لحظة يمكنها أن تطلق شرارت ووميضاً معلنةً عن قدوم أشباح مرعبة. منذ مائة عام ونحن نستعد لقدوم هزات جذرية؛ وعندما يحاول الإنسان اليوم وضع ما يسمى قوة الدولة الأساسي ضد الميل الحديث العميق، الرغبة للتقويض أو التهديم، فإنها ستزيد في المستقبل أيضاً أجواء الخوف وعدم الأمان العام. لا يخدعنا تصرف الأفراد كما لو أنّهم لا يعرفون أيَّ شيء عن هذه المخاوف: فاضطرابهم يكشف أنهم يدركون ذلك جيداً؛ إنَّهم يفكرون بتهور، ومنشغلون على وجه الحصر بأنفسهم إلى درجة لم تصادف في الإنسان سابقاً على الإطلاق، إنهم يبنون ويزرعون على المدى القصير، وبحثهم عن السعادة ليس أكبر من أن يكون القبض على السعادة بين اليوم

والغد، فربما لن يكون هناك صيد بعد الغد. نحن نعيش في عصر التشظّي، في فوضى متشظّية. حافظت الكنيسة على القوى المتنازعة في العصور الوسطى متماسكة إلى حدٍّ ما، وبفعل الضغوط التي كانت تمارسها عليها، أصبحت إلى درجة ما موحدة. عندما ينقطع الرباط المشترك وتصبح الضغوط أخفّ، فسيتمرد بعضها ضد البعض الآخر ثانية. أعلن الإصلاح الديني أموراً كثيرةً باعتبارها أديافورا، أي بالنسبة للمجالات التي لا ينبغي أن تحكمها أفكار دينية؛ ذلك هو الثمن الذي كان عليها أن تدفعه من أجل وجودها. مثلما كان على المسيحية أن تدفع ثمناً مماثلاً بمواجهة العصور القديمة ذات النزوع الأكثر دينية، لكي تؤكد وجودها: ومنذ ذاك أصبح الشقاق أوسع فأوسع. حالياً أصبح كلّ شيء على الأرض تقرره على وجه الحصر أكثر القوى شراسة وشرّاً، أنانية التجار والقادة العسكريون. تقوم الدولة التي يسيطر هؤلاء العسكريون عليها تماماً مثل التجار الأنانيين بمحاولة لإعادة تنظيم كلّ شيء طبقاً لها، إنها تريد أن تكون ذاتها الرابط والضاغط الذي يوحد العناصر المتنازعة: الدولة ترغب بعبارة أخرى، أن يعبدها الناس كإله، بنفس الطريقة التي عبدوا فيها ذات مرة الكنيسة. ماذا كانت النتيجة؟ سنرى ذلك؛ على أية حال لا نزال نجد أنفسنا في جليد عائم من نهر القرون الوسطى الذي ذاب وانطلق بحركة عنيفة ومدمرة: تراكمت كتل الجليد على بعضها، وهددت وغرقت كلّ الضفاف. لا يمكن تجنب الثورة على نحو جازم، وستكون ثورة مفتّتة[1]: لكن ما هي أصغر العناصر المكونة للمجتمع الإنساني غير قابلة للانقسام؟

---

(1) ترجمة لـ The atomistic revolution وقد يعني نيتشه بذلك انها ثورة ستفكك المجتمع بصورة حاسمة.

مما لا شك فيه أن الإنسانية ستكون تقريباً في خطر عند اقتراب فترات كهذه أكبر مِمّا حين تجد نفسها وسط دوامة الانهيار الفوضوية. إن قلق الانتظار والاستغلال الجشع لكل دقيقة تحفز كل بواعث الروح الجبانة والأنانية. بينما اعتادت الكارثة الحقيقية، خاصة الكارثة الكبيرة الشاملة، عادة، أن تحسّن البشر وتجعلهم أكثر تعاطفاً. مَن يريد الآن، وسط مثل هذه الأخطار التي تهدد عصرنا، أن يكرّس حرّاسه وفرسانه من أجل *البشرية*، كنز الهيكل المقدس الطاهر الذي ادَّخرته الأجيال العديدة في مسيرة الزمن؟ مَن سيرفع *صورة الإنسان* ثانية، حينما يشعر الجميع دودةَ الأنانية والذعرَ الكلبي فقط يقضمان في دواخلهم، وينحدرون على هذا النحو من تلك الصورة إلى مستوى الحيوانات بل وحتى إلى مستوى آلي متصلب؟

هنالك ثلاث صور للإنسان، التي وضعها عصرنا الحديث حسب الترتيب، والتي سيستخدمها الأموات بلا شك ولفترة طويلة كإلهام لتغيير مظهر حياتهم الخاصة: إنهم إنسان روسو، إنسان غوته وأخيراً إنسان شوبنهاور. من تلك الصور، تمتلك الأولى ناراً قوية، وسيكون لها بالتأكيد أكبر تأثير واسع؛ الثانية مقصودة للأقلية فقط، للكائنات المتأملة من النمط الكبير، والتي يسيئ الحشد فهمها. الثالثة تقتضي تأملاً من قبل أكثر الناس فعالية فقط؛ هؤلاء فقط يمكنهم تحمّل رؤيتها دون أن يؤذوا أنفسهم؛ لأنهم يضعفون المتأملين ويروّعون الرعاع. تخرج من الصورة الأولى قوة، التي فجّرت وما تزال تفجّر ثورات عنيفة؛ فتحت كلّ الاضطرابات والهزّات اشتراكية لا يزال إنسان روسو يتحرك، مثلما تايفون تحت أتنا[1]. مقموع

(1) تايفون هو وحش في الميثولوجيا اليونانية، الذي كان مدفونا تحت البركان اتنا.

ومسحوق تقريباً من قبل طبقات متغطرسة عليا وثروة عديمة الرحمة، أفسده كهنة وتعليم سيئ، واصفاً نفسه بالعار بسبب العادات المضحكة، ينادي الإنسان في محنته على "الطبيعة المقدسة" ويشعر فجأة، أنها بعيدة كبُعد أيّ إله ابيقوري. فلا تصل صلواته إليه: لقد غاص عميقاً جداً في فوضى اللاطبيعة. يزيل عنه بازدراء كلّ التبرج اللامع الذي بدا له قبل فترة قصيرة ماهو أكثر إنسانية من كل شيء، فنه وعلومه، كلّ مزايا حياته المنقّاة - يضرب بقبضاته الجدران التي انحل في ظلالها، ويصرخ على النور، الشمس، الغابة، والجبل. وعندما يصيح: "وحدها الطبيعة خيّرة، ووحده الإنسان الطبيعي إنساني"، فإنه يكره نفسه ويطمح إلى أبعد منها: في هذا الجو فإن الروح مستعدة لكي تتخذ قرارات مخيفة، لكنها توقظ من أعماقها ما هو نادر ونبيل فيها أيضاً.

لم يكن إنسان غوته مثل هذه السلطة المُهَدِّدة؛ إنه في الحقيقة بمعنى محدد معالج ومسكّن بالضبط لتلك الاضطرابات الخطيرة، التي ضحيتها إنسان روسو. كان غوته نفسه في شبابه نصيراً متحمساً لإنجيل الطبيعة الخيّرة بكل قلبه العاشق؛ وكان فاوسته أجرأ وأسمى إعادة انتاج لإنسان روسو، على أية حال بمقدار ما يتعلق بشهوته الملتهبة للحياة، عدم رضاه وحنينه، انهماكه مع شياطين قلبه. لكن انظر ما الذي نتج عن كل تلك الغيوم الرعدية - لا بريق واحداً بالتأكيد! وهنا بالذات تُكشف الصورة الجديدة للإنسان- الإنسان الغوتي[1]. ربما يعتقد المرء خلاف ذلك، أن يكون فاوست قد أقتيد خلال حياة معذبة ومقموعة في كل مكان، كثائر ومحرر لهم، كالقوة

---

(1) نسبة إلى غوته.

التي ترفض انطلاقاً من الخير، مثل روح الثائر المتدينة والشيطانية، على عكس مرافقه اللاشيطاني تماماً، الذي لا يستطيع بالطبع التحرر منه، لكن الذي كان عليه أن يُوظف ويحتقر بنفس الوقت شرّه الشكوكي وسلبيته- والذي هو المصير المأساوي لكل ثائر ومحرر. لكن المرء يرتكب مع ذلك خطأً، إذا توقع أيّ شيء من هذا النوع؛ هنا يختلف إنسان غوته عن إنسان روسو؛ لأنَّه يمقت كلّ شيء عنيف، كل تحوّل مفاجئ- لكن هذا يعني، كلّ نشاط. وهكذا ينتهي فاوست محرر العالم إلى مجرد رحّالة عالمي. كلّ ممالك الحياة والطبيعة، كل الفترات التاريخية، كل الفنون، الميثولوجيات والعلوم تشاهد هذا الشبح النهم يطير أمامهم، تُثار وتُكبح الرغبات العميقة، حتى هيلين لا تتمكن من منعه- فلتحلّ اللحظة الآن، التي ينتظرها مرافقه الساحر. في مكان ما في الأرض تنتهي الرحلة، تسقط الأجنحة، يقف ميفيستوفيليس على استعداد. حين يكفّ الألماني عن أن يكون فاوست، فإن الخطر الأكبر أنه يغدو محافظاً ويلجأ إلى الشيطان- وحدها القوى السماوية يمكنها تخليصه. إنسان غوته، كما قلت، هو إنسان تأملي قوي. السبب الوحيد أنه لا يذوي على الأرض هو أنه يجمع كل شيء عظيم وقيّم وجد حتى الآن وما يزال موجوداً ويحيا عليه. هكذا يعيش، رغم أنه يعيش من شهوة إلى أخرى فقط؛ فهو ليس إنساناً فعّالاً: بالعكس، لأنه لو أصبح في وقت ما عضواً في أيّ جزء من النظام القائم الذي أقامه بشر عمليون، فمن البديهي أن لا ينتج عنه شيء نافع - هكذا كانت علاقة غوته بالمسرح، مهما كانت حماسية- ويمكن أن يكون المرءُ واثقاً تماماً، أنه لا يمكن الإطاحة بالنظام القائم. إنَّ الإنسان الغوتوي هو قوة محافظة وموادعة

– لكنه كما أشرت في خطر الانحطاط إلى محافظ، مثلما يمكن أن يصبح إنسان روسو بسهولة كاتيليني[1]. قليل من القوة العضلية ووحشية طبيعية لدى الأول، وستنمو فضائله بحجم أكبر. يبدو أن غوته يعرف خطر وضعف إنسانه، لأنه أشار إلى ذلك في كلمات يارنو إلى ويلهام مايستر: "أنت قاس وسيئ المزاج– وهو أمر جيد جداً؛ لو كان بإمكانك أن تكون مرةً غاضباً حقاً، فسيكون هذا أفضل".[2]

ولأقول هذا بصراحة: لا يصبح الأمر أفضل قبل أن نغدو غاضبين حقاً. وسيساعدنا إنسان شوبنهاور على ذلك. يتحمّل *الإنسان الشوبنهاوري بطواعية معاناة الحقيقة*: وتخدم هذه المعاناة لقتل إرادته الفردية وتعدّه لانهيار وتثوير كامل لوجوده، باعتباره مغزى حياته الحقيقي. يبدو قول الحقيقة بالنسبة للآخرين علامة على الشرِّ، لأنهم يعتبرون الحفاظ على أنصاف حقائقهم وأفكارهم الثابتة كواجب إنساني، ولهذا يعتقدون ان كلّ شخص يربك لعبتهم الطفولية شرِّيراً. لقد تم إغوائهم لكي يقولوا إلى هذا الإنسان ما قاله فاوست لمفيستوفيليس: "لقد دمرتَ القوة اليَقظَة الشافية الخلاقة باليد الشيطانية الباردة" (البيت 1383 ف)". إن الذي يريد أن يعيش على طريقة شوبنهاور سيشبه بالتأكيد مفيستوفيليس أكثر مما يشبه فاوست– على الأقل للعيون الحديثة القصيرة النظر، التي ترى في الرفض دائماً علامة شر. لكن توجد هناك طريقة أن ترفض وتدمر

---

(1) بمعنى متمرد سياسي، متآمر. إشارة إلى المؤامرة الكاتيلنيرية في روما القديمة.

(2) من Wilhelm Meisters Lehrjahre (1795-6), Book 8

بها، التي تعود إلى حنين شديد نحو التقديس والخلاص، والناطق الأول باسم هذا الحنين كان شوبنهاور، حينْ برز بيننا نحن البشر المدنسين والعلمانيين بكل معنى الكلمة. كل شيء موجود يمكن نكرانه يستحق أن يكون مرفوضاً أيضاً؛ أن تكون صادقاً يعني أن تعتقد بوجود لا يمكن بأي حال من الأحوال رفضه والذي هو نفسه حقيقة وبدون تزييف. ولهذا يشعر الإنسان الصادق أن المغزى من أفعاله هو ميتافيزقي، وينبغي تفسيره انطلاقاً من قوانين حياة أسمى ومختلفة، وهو بالمعنى الأعمق للكلمة، إيجابي، مهما يبدو أن أفعاله تشبه تدميراً وتخريباً لقوانين هذه الحياة. هذا يحوّل كل عمله إلى معاناة مستمرة؛ لكنه يعرف ما يعرفه السيد إيكهارد[1] أيضاً: "الحيوان الذي يحملكم أسرع إلى الكمال هو المعاناة". أعتقد أن كل شخص فكر في أعماقه حول سياق الحياة هذا، لابد أن يحس بانفتاح قلبه وحنين شديد في داخله كي يكون إنساناً شوبنهاورياً: نقي وهادئ على نحو لافت للنظر حين يتعلق الأمر بنفسه ورفاهيته الشخصية، لكن مليء بنار ملتبهة نحو المعرفة، التي ليس لها أي قاسم مشترك مع ما يسمى حيادية "الإنسان العلمية المقيتة والباردة، متسامياً على الأفكار النكدة والمثبطة، مستعداً دائماً ليكون أول ضحية من أجل الحقيقة المعترف بها، ومتشرباً في أعماقه بالوعي عن أيّة عذابات سيجلبها بحثه عن الحقيقة. سيحطم، بالتأكيد، سعادته الارضية من خلال شجاعته؛ وسيكون عدواً لأولئك البشر الذين يحبهم والمؤسسات التي تربى فيها؛ ربما لن يستثني بشراً أو شيئاً رغم أنه يعاني عندما يعانون، وسيُساء

(1) لاهوتي وفيلسوف ومتصوف الماني عاش تقريبا بين الفترة 1260-1328.

فهمه وسيُعتقد طويلاً أنه تحالف مع القوى التي يكرهها. إنه مضطر، وبسبب نظرته الإنسانية المحدودة، إلى أن يكون غير عادل، عندما يسعى من أجل العدل: لكن يمكنه أن يواسي نفسه بالكلمات التي قالها ذات مرة مربيه الكبير شوبنهاور: "الحياة السعيدة مستحيلة: إن أقصى ما يمكن أن يناله الإنسان، هو *مسار حياة بطولية*." ينالها الذي يكافح بشكل أو آخر معضلاتٍ جمّةً وينتصر في النهاية، لكنه لا يحصل من ذلك إلاّ على مكافأة صغيرة أو لا شيء على الاطلاق. وبعد أن تنقضي المعركة سيتحول كالأمير في مسرحية ركورفو غوزي Gozzi's [1]Re corvo إلى حجر، لكن في وضعية نبيلة وملامح سامية. ستدوم ذكراه، وسيشاد به كبطل؛ إرادته، التي أُهلكت خلال حياة كاملة عبر عمل شاق، نجاح قليل وعقوق العالم، ستذوب في النيرفانا."[2] لا تتلاءم مسيرة حياة بطولية كهذه، بهلاكها الكامل، مع المفهوم المبتذل الذي يعثر عليه المرء عند أولئك الذين يتحدثون كثيراً حول هذا النوع ويقيمون احتفالات في ذكرى البشر العظماء، والذين يعتقدون بخطأ، أن البشر العظماء هم عظماء بنفس الطريقة التي هم صغار، أن العظمة سببها الموهبة، وأن العظماء هم عظماء من أجل إرضاء أنفسهم، أو تحثهم آليات داخلية بحيث لا يمكنهم تجنب أن يصبحوا عظماء، ولهذا الإنسان الذي لم يحصل على نفس الموهبة أو لا تحثه نفس الضرورة، له نفس الحق لكي يكون صغيراً، كما للآخرين كي يكونوا عظماء. لكن الموهبة والإجبار هما كلمتان كريهتان

---

(1) مسرحية كتبها الشاعر الايطالي كارلو غوزي (1720- 1806).

(2) من شوبنهاور Parerga und Paralipomena: 'Nachtrage zur Lehre von der Bejahung und Verneinung des Willens zum Leben.'

يستخدمهما المرء لغرض الهروب من اللوم الداخلي، إنهما تعبير عن تشهير بكل من اتبع هذا الصوت الداخلي، أي الإنسان العظيم؛ إنه يرفض تماماً أن يتقبَّل هدايا أو يُجبر- إنه يعرف ككل الناس الصغار كيف يعيش الحياة ببساطة، وأن سريراً ناعماً ينتظره يمكنه أن يستلقي عليه، إذا سلك سلوكاً مؤدباً وتقليدياً تجاه نفسه، وأن رفاقه البشر هم أولئك الأكثرية: لأن هدف كل ترتيبات البشر هو صرف انتباه أفكار المرء كي يكف عن أن يكون واعياً بالحياة. لكن لماذا إذن هو لديه رغبة نحو النقيض- أعني أن يعي الحياة، أي أن يقاسي بسبب الحياة؟ لأنه يشعر أن الإنسان يريد أن يخدعه من أجل نفسه، وأنه يوجد نوع من الاتفاق لاختطافه من كهفه. فيحرِّض نفسه، ويصغي بانتباه شديد، ويتخذ قراراً: "سأواصل أن أكون ذاتي!" إنّه قرارٌ مفزع، لكنه سيفهم هذه الحقيقة تدريجياً. فعليه الآن أن يغوص في أعماق الوجود بعدد من الأسئلة الاستثنائية على شفتيه: لماذا أعيش؟ ما هو الدرس الذي عليّ أن أتعلمه من الحياة؟ كيف صرت كما أنا عليه، ولماذا أعاني مما أكون عليه؟ إنّه يعذب نفسه، ويرى أن لا أحد آخر يعذب نفسه كما يعّذب هو نفسه، وأن إخوته البشر يتحينون بشرهٍ على العكس المناسبات الرائعة التي تحدث على مسرح السياسة، أو يتبخترون بمئات من الأقنعة المتنوعة، كشباب، رجال، كهول، آباء، مواطنين، كهنة، موظفين، وتجار، ابتلعتهم المهزلة المشتركة، التي يمثلونها دون أن يفكروا بأنفسهم. إذا سألهم المرء، لماذا يعيشون، فإنهم جميعاً سيجيبون سريعاً بفخر - لكي نصبح مواطنين صالحين أو علماء أو رجال دولة"- لكنهم مع ذلك هم شيء لا يمكن أن يكون أبدا شيئاً آخر، ولماذا يكونون هذا بالذات؟ وليس، يا للحسرة، شيئاً

أفضل؟ إن الذي يرى حياته مجرد نقطة في تطور عِرق، دولة أو عِلم، ويعتبر نفسه على هذا النحو منتمياً كلياً إلى تاريخ الصـيرورة[1]، لم يفهم الدرس الذي منحه إيّاه الوجود، وعليه أن يتعلّم ذلك في مناسبة أخرى. هذه الصيرورة الخالدة هي مسرحية دمى مزيفة الـتي تجعـل الإنسان ينسى نفسه، التسلية الحقيقية التي ترسل الفـرد نحـو كـل الجهات الممكنة في آن واحد، لعبة تافهة لانهائية، التي يمثلها الـزمن، الطفل الكبير، لنا ومعنا. تتوقف بطولة الحقيقة على أن يكف الإنسان أن يكون ذات يوم الدمية التي يلعب بها. كلُّ شيء في هذه الصيرورة أجوف، خادع، سطحي وكريه؛ والجواب عن اللغز الـذي علـى الإنسان أن يجد له حلاً يمكن العثور عليه فقـط في الصـيرورة، في الصيرورة إذن وليس بطريقة أخرى، في الخالد. هو يبدأ الآن اختبـار إلى أيِّ حد اندمج عميقاً مع الصيرورة، والى أيّ عمق مع الوجـود- مهمة جبارة تنتصب أمام روحه: أن يحطم كلّ تلك الصـيرورة، أن يكشف كل زيف في الأشياء. يريد هو أيضاً أن يعرف كلَّ شـيء، لكن بطريقة أخرى تختلف عن إنسان غوته، ليس مراعـاة لطراوتـه الأنيقة، ولا ليبهج نفسه على بعد مسافة مضمونة تنوع الأشياء؛ إنّه يقدم نفسه بالعكس كضحية أولى.

الإنسان البطولي كونه يزدري سعادته ومأساته، فضائله ورذائله، ونفسه باعتبارها مقياساً لكل الأشياء، فإنه لا يأمل أيّ شـيء مـن

(1) مفهوم ذو معان متعددة عند نيتشه، فطبقا للقاموس الذي اعده دوغلاس بورنهام عن مفاهيم نيتشه فقد اشار إلى مفهومين رئيسين بين امور أخرى وهما التحليل التاريخي والميتافيزيقي becoming. انظر
Douglas Burnham, The Nietzsche Dictionary, London: Bloomsbury, 2015, p.38-40.

نفسه ويريد أن يرى في كل الأشياء هذا العمق اليائس. تكمن قوته في نسيان نفسه؛ وإذا فكر في نفسه فإنَّه يقيس المسافة بين نفسه وبين هدفه السامي، ويشعر كما لو أنَّه يرى خلفه وتحته مجرد كومة صغيرة من النفايات. سعى المفكرون القدماء إلى السعادة والحقيقة بكل قواهم- ويقول مبدأ الطبيعة الظالم، إنَّه لن يعثرَ أحد في يوم ما على ما أجبروا على البحث عنه. لكن بالنسبة للذي يبحث عن اللاحقيقة في كلّ شيء ويتحالف بطواعية مع المأساة فربما سيجرب شيئاً أخر، خيبة من نوع آخر: شيئاً لا يمكن التعبير عنه، حيث السعادة والحقيقة ليسا سوى شعاع كاذب ووثني يدنو منه، فتفقد الأرض جاذبيتها، وتصبح أحداث وقوى الأرض كحلم، وينتشر حوله ضياء الصحو كما في أمسيات صيفية. بالنسبة للذي يرى تلك الأشياء كما لو أنه بدأ يستقيظ للتو، وكما لو أن غيمات قليلة فقط من حلم هارب ما تزال تحوم حوله. يوماً ما هي الأخرى ستختفي أيضاً، من ثم سيكون النهار.-

5

لكنني وعدت أن أصف شوبنهاور كمربٍّ انطلاقاً من خبراتي، ولهذا فإنه ليس كافياً أن أرسم الإنسان المثالي، الذي يتسلط في داخل وحول شوبنهاور، كما فكرته الأفلاطونية، وأن أرسمه بصورة ناقصة. ما تزال المهمة الأصعب قائمة؛ – أن أقول، كيف يمكن استخلاص حلقة جديدة من الواجبات من هذا المثال وكيف يمكن للمرء المضيَّ قدماً نحو هدف سام جداً عَبر نشاط منتظم؛ باختصار، أن أبرهن على أن هذا المثالي يربِّي. وإلاّ فقد يفكر المرء، أنّ المثالي ليس الاّ رؤية منتشية وهبت لنا للحظات من الزمن لتتركنا بعد ذلك في وضع حرج أكثر ألماً وحتى لجزع أعمق. وصحيح أيضاً أن صحبتنا مع هذا المثال تبدأ مع هذه التضادات المفاجئة بين النور والظلام، النشوة والغثيان؛ وهنا تكشف عن تجربة قديمة قدم وجود المُثل ذاتها. لكن علينا أن لا نبقى واقفين مع ذلك لفترة طويلة عند العتبة، بل علينا أن نمضي على الفور قدماً. علينا أن نسأل بجدية السؤال المحدد: هل من الممكن أن نجلب ذلك الهدف السامي بصورة لا تصدق إلى درجة

قريبة منا، بحيث يعلمنا في نفس الوقت الذي يسمو بنا؟- بحيث لا تتحقق عبارة غوته الشهيرة لنا: "ولد الإنسان لوضع محدد؛ إنه قادر على إدراك الأهداف المحددة، الواضحة والبسيطة، ويعوّد نفسه على استخدام الوسائل التي في متناول يده؛ لكن بمجرد أن يتعدى حدوده، فإنّه لا يعرف ما يريد أو ما يتوجب عليه عمله، ويصل إلى نفس الشيء، سواء ألهته العديد من الأشياء التي يواجهها أو يخرج عن طوره بسبب سموها وقيمتها. إنها كارثة دائماً حين يُحثّ الإنسان إلى السعي نحو شيء لا يمكن نيله عَبر أي نشاط منتظم ومستقل".[1]
يبدو أن يكون الإنسان الشوبنهاوري متفهما على نحو فريد لهذا الاعتراض: يمكن لقيمته وعظمته أن تغيّر رؤوسنا فقط وتبعدنا نتيجة لذلك عن أي مساهمة في عالم العمل؛ انسجام الواجبات، وتيار الحياة يتلاشيان. ربما يتعود البعض ضد إرادته أن يوزع نفسه ويعيش طبقاً لتوجيه مزدوج، بمعنى أن يعيش في تناقض داخلي، غير متأكد هنا وهناك بحيث يصبح أكثر ضعفاً وغير منتج في كل يوم يمر. آخرون سيتخلون ملياً عن أي نشاط على الإطلاق ونادراً ما يبدون أي اهتمام لنشاطات الآخرين. تكون الاخطار دائما كبيرة عندما يتم تحميل الإنسان مهمة صعبة ولا يكون قادراً على *إنجاز* آياً من واجباته؛ وهذا يمكن أن يحطم كائنات قوية، لكن الأغلبية، الضعيفة، تغرق في كسل تأملي، وتفقد في نهاية المطاف، بسبب كسلها، حتى القدرة على التأمل.

---

(1) من كتاب غوته
"*Wilhelm Meisters Lehrajahr*, Book 6, 'Confession of a Beautiful Soul'.

مقابل هذه الاعتراضات، أريد أن أعترف الآن أن عملنا في هذا المجال بالذات بدأ للتو، وأنني متأكد، انطلاقاً من تجربتي الخاصة، من شيء واحد فقط: إن من الممكن أن نعلّق من تلك الصورة المثالية حول أعناقنا سلسلة واجبات من مثاليات مستوفية الشروط، وإن بعضنا يشعر للتو بثقل هذه السلسلة. لكن قبل أن أتمكن بضمير حرّ من تحويل هذه الحلقة الجديدة من الواجبات إلى وصفة، فعلي أولاً أن أقدِّم الملاحظات التالية.

يشعرالناس الأكثر عاطفة على مدى الأزمنة بعطف تجاه الحيوانات، لأنها تعاني من الحياة، ومع ذلك لا تمتلك القدرة على توجيه شوكة المعاناة نحو نفسها وتفهم وجودها ميتافيزيقياً؛ في الواقع أنه أمر مثبط بعمق للهمّة أن نرى هذه المعاناة التي لا معنى لها. ولهذا ظهرت في أماكن عديدة من الأرض فرضية تقول إنّ أرواح البشر المثقلة بالإثم تسكن في أجساد هذه الحيونات، بحيث تكتسب هذه المعاناة الخرقاء، التي تثير من أول نظرة الحفيظةَ، معنى وأهمية كعقاب وكفّارة أمام العدل الإلهي. إنه، حقاً، عقابٌ شديدٌ أن تعيش كحيوان على هذا النحو، محكوماً بالجوع والشهوة ولا تكون قادراً على أي نوع من التفكير بطبيعة الحياة؛ لا يمكن تصور مصيرٍ أصعب من مصير الحيوان البري الذي تطارده خلال البرية أقصى العذابات المضنية، وإذا ما شبع في النادر، فإن نفس هذا الشبع سيتحول إلى ألم في الصراع القاتل مع حيوانات أخرى أو من خلال الشره المفرط والتخمة المقرفة. أن تكون حيواناً هو أن تتشبث بالحياة بصورة مجنونة وعمياء، من أجل الحياة فحسب، دون أيّة فكرة عن أن المرء يعاقب ولماذا يعاقب، وأن يتوق بغباء الشهوة المرعبة إلى هذا العقاب، كما

لو أنه كان السعادة ذاهّا. إذا تسعى الطبيعة بكاملها نحو الإنســـان، فإنها بذلك تتيح لنا أن نفهم، أنَّ الإنسان ضروري لتحريرالطبيعة من لعنة الحياة البهيمية، وأنَّ الحياة ترى أخيراً نفسها في الإنسان كما في المرآة، حيث لا تبدو بلا معنى بل تظهر بجوهرها الميتــافيزيقي. مــع ذلك علينا أن نتأمل: أين ينتهي الحيوان، وأيــن يبــدأ الإنســان؟- الإنسان، الذي هو همّ الطبيعة الوحيد! طالما يتوق الإنسان إلى الحياة كما يتوق إلى السعادة، فإنَّه لا يزال لم يرفع عينيه إلى أعلى من أفــق الحيوان؛ لأنَّ الإنسان يتوق بوعي أكبر فحسب ما يسعى إليه الحيوان بغريزته العمياء. وهذا هو ما نفعله جميعنا في الجزء الأعظم من حياتنا: لا نتحرر عادة من البهيمية، فنحن أنفسنا هذه الحيوانات التي يبدو أن حياتها تتكون من عذاب لا معنى له.

لكن هناك لحظات، *حينما نفهم هذا*: فتتفرق الغيوم ونرى أنَّنا وبالاشتراك مع كل الطبيعة نندفع قُدُماً نحو الإنسان مثلما نحو شــيء موجود أعلى منا. في مثل هذا الصفاء المباغت نحدق حولنا وخلفنــا مرتعبين؛ ثمة حيوانات برية رشيقة تمشي هناك ونحن وسطها. نشــاط البشر الضخم في صحراء الأرض الكبيرة، تأسيسهم للمدن والدول، الحروب التي شنوها، تجمّعهم وتفرقهم ثانية، انــدماجهم المشــوش، التقليد المتبادل، أعمالهم الوحشية وخدعهم المتبادلــة، احتجاجــاتهم، صرخاتهم من الفرح في ساعات الانتصار- كل هذا هــو اســتمرار للبهيمية: كما لو أن الإنسان سيجبر للعودة عمداً إلى مرحلة مبكــرة من تطوره ويخدع لنزعته الميتافيزيقية؛ كما لو أن الطبيعــة، بعــد أن تاقت طويلاً للإنسان وعملت عليه، تنسحب مرتعشة وتفضل العودة إلى حالة الغريزة اللاواعية. آه، إنها بحاجة إلى المعرفة، لكنها ترتعــب

من المعرفة، التي لا يمكن في الواقع التخلي عنها؛ هكذا يتراقص اللهب مضطرباً باستمرار إلى الامام والخلف كما لو أنه خائف من نفسه، ويلتهم آلاف الأشياء قبل أن يلتهم في النهاية الشيء الذي بسببه تحتاج الطبيعة إلى المعرفة عموماً. في اللحظات المنفردة نعرف جميعنا، كيف أنّ أغلب الترتيبات المتقنة في حياتنا قد أُعدت فحسب لكي نهرب من واجباتنا التي علينا إنجازها حقاً، كيف أننا نفضل إخفاء وجوهنا في مكان ما، بحيث لا يتمكن ضميرنا ذو المئة عين العثور علينا، وكيف نستعجل لكي نمنح حبنا إلى الدولة، لجمع الثروة، إلى الحياة الاجتماعية أو العلم، كيف نشتغل في عملنا اليومي بحماس طائش أكثر مما هو ضروري للحفاظ على حياتنا، لأننا نجد هذا أكثر ضرورة من عدم الحصول على تفرغ للّم أفكارنا. الاستعجال موجود في كل مكان لأنّ الجميع في هروب من أنفسهم؛ ويجد المرء في كل مكان هذا السعي المخيف لإخفاء هذا الاستعجال؛ لأنّ كل فرد يريد أن يبدو راضياً وأن لا يسمح للمراقبين الدهاة أن يلاحظ بؤسه؛ ويواجه المرء في كل مكان الحاجة إلى قلائد كلمات رنانة جديدة يعلقها في الحياة بحيث يمكن أن تمنحها نفحة احتفالية صاخبة. الجميع يعرف هذا الوضع الغريب، الذي تضغط فيه الذكريات المكدرة فجأة، وكيف نبذل جهوداً كبيرة عن طريق الصخب والإيماءات لطردها من عقولنا؛ لكن صخب وايماءات الحياة العادية تكشف أننا جميعاً نجد أنفسنا باستمرار في مثل هذا الوضع، وأننا نعيش في خوف من الذكرى ومن الإحساس الداخلي. لكن ما هذا الذي يقلقنا مراراً، أيّ بعوض هذا الذي يمنعنا من النوم؟ ثمة أرواح تحيط بنا، كل لحظة من الحياة تريد أن تقول لنا شيئاً، لكننا لا نريد الإصغاء إلى

أصوات الروح. عندما نكون وحيدين وهادئين نصبح خائفين من أنّ شيئاً ما سيُهمس في آذاننا، ولهذا نكره السكينة ونخدّر أنفسنا بالصحبة.

حينما ندرك هذا بين الحين والآخر، فإننا كما أشرت سابقاً، نندهش من كل هذا الاستعجال والخوف المدوّخ، ومن الوضع الحالم في حياتنا، الذي يرتعب على ما يبدو من أن يستيقظ ويحلم بحيوية وهدوء، كلما اقتربت هذه اليقظة. لكننا نشعر بنفس الوقت، أننا ضعفاء لكي نتحمل طويلاً تلك اللحظات من التأمل العميق، وأننا لسنا البشر، الذين تستعجل كل الطبيعة نحوهم من أجل إنقاذها: وهو بحد ذاته عمل جدير في كل مرة نكون قادرين على رفع رؤوسنا فوق سطح الماء ونلاحظ أيّ تيار نحن تحت رحمته. لكن حتى هذا، أن نصل سطح الماء ونستيقظ للحظة آنية، سنحققه بقوانا الخاصة، ينبغي رفعنا إلى الأعلى - ومن هم الذين يرفعوننا؟

إنهم هؤلاء *البشر الحقيقيون، هؤلاء الذين لم يعودوا حيوانات، إنهم الفلاسفة، الفنانون والقديسون*؛ الطبيعة، التي لم تثب أبداً، تقوم بخلقهم بوثبتها الوحيدة، وهي علاوة على ذلك وثبة فرح، لأنها تشعر لأول مرة أنها بلغت هدفها- حيث تدرك أن عليها أن تنسى أن لديها أهدافاً، وأنّها صوبت نحو رهانات عالية جداً في لعبة الحياة والوجود. هذه الخبرة غيّرت مظهرالطبيعة، وتعب المساء الرقيق، الذي يسميه البشر "الجمال"، يستريح على وجهها. إنّ ما تعبر عنه هذه الطلعة المتغيّرة هو *التنوير العظيم* المتعلق بالوجود؛ إنّ أقصى أُمنية يمكن أن يتمناها الميت هي أن يساهم بثبات وبإنصات في هذا التنوير. فإذا فكر المرء كم كان على شوبنهاور مثلاً أن يستمع في مجرى حياته، فعليه أن يقول لنفسه:

"وا أسفاه، أيتها الآذان الصمّاء، أيها الرأس البليد، أيها العقل المضطرب، أيها القلب المنكمش، آه، لكل الأشياء التي أسميها أشيائي- كم أكره هذا! أن لا تكون قادراً على الطيران بل تخفق بجناحين فقط! أن ترى ما هو أعلى منك دون أن تكون قادراً على الوصول اليه! أن تعرف الطريق، الذي يفضي إلى أفق الفيسلوف المفتوح بلا حد، وتكاد تصل اليه، لكن بعد بضع خطوات ترتد ثانية! وحتى لو تحققت الأمنية الكبيرة ليوم واحد فقط، فكم يرغب المرء مبادلتها بفرحة ببقية الحياة! أن تتسلق عالياً في هواء الألب الصقيعي النقي، أعلى مما فعلها أي فيلسوف سابقاً، حيث لم يعد شيء يخفيه الغيم أو الضباب، وحيث بنية الأشياء الأساسية تتحدث بصوت عنيف وقاس، لكن مفهوم بصورة قاطعة! مجرد التفكير بهذا يجعل الروح وحيدة وأبدية؛ لكن إذا تحققت أمنيتها، إذا سقطت نظرتها مباشرة ولامعة كحزمة ضوء على الأشياء، فسيتلاشى العار، القلق، والشهوة - بأيّة كلمات سيصف المرء وضع الروح هذا، هذه العاطفة الجديدة الغامضة دون تهيّج التي ستغدو بواسطتها، مثلما روح شوبنهاور، منتشرة على هيروغلافيا الوجود الهائلة، وعلى عقيدة النشوء المتحجرة، ليس كالليل، بل كضوء الفجر الملتهب الذي يغمر كل الأرض. ومن جهة أخرى، يا له من قَدَر، أن تشعر بما يكفي من ثقة وسعادة الفيلسوف لتكون قادراً على الإحساس بعدم ثقة وشقاء غير الفيلسوف الكاملة، وأمنيته بلا أمل. أن يشعر نفسه كثمرة على الشجرة التي لن تنضج أبداً بسبب الظلال الكثيفة، ويرى في نفس الوقت أشعة الشمس التي يحتاجها منتشرة أمامه!

ثمة ما يكفي من العذاب هنا لكي تجعل إنساناً غير موهوب بهذه الطريقة حسوداً وحقوداً، إذا كان هو قادراً البتة على أن يكون

حسوداً وحقوداً؛ من المحتمل أن يوجه مع ذلك روحه اخيرا في اتجاه جديد بحيث لا تستهلك نفسها في توق عقيم، وسيكتشف الآن حلقة واجبات جديدة.

بهذا وصلت للإجابة على السؤال فيما إذا كان ممكناً أن نتعقب نموذج إنسان شوبنهاور العظيم بواسطة نشاط عملي. أمر واحد واضح في معظم الأحوال: إن هذه الواجبات الجديدة ليست واجبات إنسان معزول، بل إنها على العكس تضع المرء وسط جماعة كبيرة، تم الحفاظ على تماسكها ليس بواسطة أشكال وقوانين خارجية، بل على الأرجح بواسطة فكرة أساسية. هذه الفكرة الأساسية هي *الثقافة*، طالما تحمّل كلّ فرد منا واجباً واحداً فقط: *أن نعمل على إظهار الفيلسوف، الفنان والقديس في داخلنا وحولنا، ونعمل من خلال ذلك على إكتمال الطبيعة*. فمثلما تحتاج الطبيعة الفيلسوفَ، فإنها تحتاج الفنانَ أيضاً لإنجاز هدف ميتافيزيقي، أي تحتاجه لتنوير نفسها، بحيث تتمكن في نهاية المطاف من أن تلمح صورة كاملة ونقية، التي يمكن أن تراها مشوشة فقط في جيشان صيرورتها – أي من أجل وعي ذاته. إن غوته هو الذي أعلن بتعالٍ لكن بتأكيد عميق أنّ تجارب الطبيعة لها قيمة فقط بالقدر الذي يدركُ فيه الفنان أخيراً كلماتها المتلعثمة، ويلتقيها في وسط الطريق ويعبر عن ما تحاول أن تقوله حقاً. "لقد قلت ذلك مراراً، "أعلن في مكان ما، "وسأكرره مراراً، *إنّ السبب النهائي*[1] لكل صخب البشر والعالم هو الشعر الدراماتيكي. لأنّ هذا الحشو المنمق من الكلام لا ينفع لأيّ شيء

(1) باللاتينية في الاصل.

على الاطلاق." ولذلك فإن الطبيعة تحتاج في النهاية إلى القديس، الذي تلاشت أناه تماماً، و لم يعد يشعر بحياته المعذبة باعتبارها حياته- أو بالكاد أحسّها كذلك، بل كشعور عميق بالتكافل، الوحدة والتعاطف مع كل المخلوقات الحيّة؛ القديس الذي تظهر فيه معجزة التحول التي لم تصبها لعبة الصيرورة، الطريقة النهائية والسامية التي تكون بها إنساناً، التي تسعى نحوها كل طبيعة وتحث من أجل تحررها من نفسها. لا شك أننا جميعاً نمتُّ بقرابة وارتباط بالقديس، مثلما نمتُّ بقرابة إلى الفيلسوف والفنان؛ ثمة لحظات، حيث تقدح شرارات من النارالصافية العاشقة، التي لم نعد نفهم في ضوئها كلمة "أنا"؛ يوجد ثمة شيء ما وراء وجودنا، الذي يكون في هذه اللحظات دنيوياً، ولهذا فإن قلوبنا مليئة بالحنين إلى جسور بين هنا وهناك. في حالتنا الطبيعية لا يمكننا الإسهام بأي شيء لإنتاج الإنسان المنقذ، ولهذا نكره أنفسنا كما نحن في أغلب الاحيان، وهذه الكراهية هي جذر التشاؤم، الذي كان على شوبنهاور أن يذكّر عصرنا به، رغم أنه قديم كقدم حنيننا إلى الثقافة. إنه جذر الثقافة، وليس زهرتها، أساسها، وليس سقفها، البداية لمسارها، وليس هدفها: لأننا في وقت أو آخر سنكون مجبرين أن نتعلم كراهية شيء آخر، شيء أكثر عمومية من فردانيتنا ومحدوديتها المزرية، قلقها واضطرابها. في هذا الوضع السامي نريد أن نحب شيئاً آخر أيضاً لسنا قادرين حالياً على حبه. فقط عندما نصبح في الولادة الراهنة أو القادمة منضمِّين شخصياً في النظام الراقي للفلاسفة، الفنانين والقديسين، فسيتم إرشادنا لهدف جديد لحبنا وكراهيتنا- في غضون ذلك لدينا مهمتنا وواجباتنا العديدة، كراهيتنا وحبنا. لأننا نعرف ما هي الثقافة. إنها

تتطلب لكي تصبح مستخدمة عملياً، أننا نحضر وندعم، وأن الإنسان الشوبنهاري يظهر باستمرار مجدداً، بما أننا نتعلم ما يعيقه ونزيله - باختصار، أن نكافح بلاهوادة كل الذي يمنعنا أن نبلغ هدف وجودنا الاسمى، بما أنه يعيقنا في داخلنا أن نصبح مثل هؤلاء البشر الشوبنهاوريين.

6

إن قبول شيء ما يكون أحياناً أصعب من رؤية حقيقته؛ هذا ما يشعر به أغلب الناس عندما يتأملون هذه العبارة: "على البشرية العمل باستمرار لإنتاج بشر عظماء متفردين- هذه هي مهمتهم وليس شيئاً آخر." كم يرغب المرء أن يطبق على المجتمع وأهدافه شيئاً ما يمكن تعلمه من دراسة أي نوع من الحيوان أو النبات؛ حيث إنَّ همَّه الوحيد هو المثال الأعلى الفردي، الأكثر ندرة، وقدرة، وأكثر تعقيداً وإنتاجية - كم يحب المرء أن يفعل هذا، لو أن التصورات المطبوعة في الذهن بخصوص هدف المجتمع لا تقوم بمثل هذه المقاومة الشرسة! وكان من السهل بما فيه الكفاية في الحقيقة أن نرى ذلك، عندما تبلغ الأنواع حدود تطورها وتكون على وشك أن تتطور إلى أنواع أرقى، فإن هدف تطورها لا يكمن في حجم نماذجها ورفاهيتها، ناهيك عن الحديث عن تلك الأمثلة التي تحتل أقل مكانة في زمنها، بل الاحرى في تلك المخلوقات المشتتة والطارئة ظاهرياً، التي أتاحت لها الظروف المؤاتية بالظهور هنا وهناك. وينبغي أن يكون

من السهل تماماً فهم الحاجة التي على البشرية أن تنشدها، لأنه يمكنها أن تصل إلى موقف واع لهدفها، وتهيئ الظروف المناسبة لولادة الشخصيات العظيمة والمتحررة. لكن اعتراضات متنوعة تعارض هذا الاستنتاج: فهنا (اعتراض) يرى أن الهدف النهائي يكمن في سعادة الجميع أو الأغلبية، وهناك (آخر) يراه في تطورالتجمعات الكبيرة؛ ومثلما يكون الفرد مستعداً بسرعة للتضحية بحياته من أجل الدولة، مثلاً، فإنه سيكون بالمثل متردداً وقلقاً لو لم تكن دولة، بل التضحية من أجل إنسان آخر. إنه على ما يبدو مطلب بلا معنى، أن يوجد إنسان من أجل إنسان آخر؛ "الأفضل أن يكون من أجل الآخرين، أو على الأقل، من أجل الأغلبية!" أوه، يا ضيق الأفق[1]، كما لو أن الامر أقل عبثية أن تسمح للعدد أن يقرر، عندما يتعلق الأمر بالقيمة والمعنى! لأنَّ السؤال هو التالي: كيف تحصل حياتك، حياة الفرد، على أعلى قيمة، وأعمق معنى؟ وكيف يمكن أن تكون مهدورة إلى أقل درجة ممكنة؟ بالتأكيد من خلال أن تعيش فحسب في سبيل خير أندر وأكثر النماذج قيمة، وليس من أجل صالح الأغلبية- بعبارة أخرى أولئك الذين، كلّ على انفراد، هم أقل نموذجية. ينبغي غرس ورعاية هذا الموقف بالذات في عقل الإنسان الشاب، بحيث يعتبر نفسه كأحد أعمال الطبيعة الفاشلة، ولكن بنفس الوقت كشاهد أيضاً على أكبر وأروع نوايا هذه الفنانة: لقد قامت الطبيعة بفعل فاشل، عليه أن يقول لنفسه، لكنني أريد أن أكافئ نواياها العظيمة فأضع نفسي في خدمتها، فربما تفعله بصورة أفضل ذات يوم.

(1) Spidsborger "مفردة لا معادل لها بالعربية ويمكن ترجمتها بمفردة قديمة هي "الرويبضة" لكنني فضلت مفردة معاصرة وهي اقرب إلى معناها الاصلي.

إنه يضع نفسه، بالوصول إلى هذا القرار، داخل دائرة *الثقافة*؛ لأنَّ الثقافة هي طفل كل وعي فرد لذاته وعدم رضى عن نفسه. كلّ فرد يؤمن بالثقافة يقول بنفس الوقت: "إنني أرى شيئاً فوقي أسمى وأكثر إنسانية مني: ساعدوني كي أصل اليه، مثلما أريد مساعدة كل انسان يعرف ويعاني نفس الشيء، بحيث يظهر في النهاية الإنسان الذي يشعر نفسه كاملاً وبلا حدود في المعرفة والحب، في الرؤية والقدرة، والذي يكون في كماله على وفاق مع الطبيعة، الحَكَم والمقيّم لكل الأشياء." من الصعب أن تخلق في أيّ شخص هذه الحالة من الوعي الذاتي المرعب، لأنه من المستحيل تعليم الحب: ففي الحب وحده تجد الروح ليس فقط النظرة الواضحة القاسية والمزدرية لذاتها، بل وأيضاً الرغبة للنظر إلى ما بعد الذات وتبحث بكل طاقاتها عن ذات أعلى خفية. وهكذا وحده الذي منح قلبَه إلى إنسان عظيم ما يتلقى لهذا السبب أول *تكريس*[1] *للثقافة*؛ وعلامة هذا التكريس هو أن يكون المرء خجلاً من نفسه دون إحساس مصاحب للكمد، وأن يكره ضيق أفقه ووضاعته، وأن يتعاطف مع العبقري الذي يترفع بنفسه مراراً عن عقمنا ولامبالاتنا. ونفس الشعور بالتوقّع لكل أولئك الذين ما يزالون يكافحون ويتطورون، بقناعة داخلية عميقة أننا نواجه الطبيعة في كلّ مكان تقريباً تندفع باتجاه الإنسان وتفشل مراراً في أن تناله، إلاّ أنّها مع ذلك تنجح في كل مكان بخلق أكثر البدايات الرائعة، أشكال وسمات فردية، ولهذا يشبه البشر الذين نعيش بينهم حقلاً انتشرت عليه شذرات منحوتات ثمينة تنادي أجزاؤها علينا:

---

(1) يستخدم نيتشه هنا مفهوما مسيحيا "التلقين" أو "التكريس" المسيحي اشارة إلى الانضمام والقبول.

تعالوا، ساعدوني، أكملوا، وضعوا كلّ ما يخص الآخر معاً، فلدينا توق لا يوصف لنصبح كاملة.

هذه الخلاصة للحالات الداخلية سمَّيتها أول *تلقين للثقافة*؛ وعلي الآن أن أصف نتائج التلقين *الثاني*، وانا أدرك جيداً هنا، أنَّ هذه المهمة هي أكثر صعوبة. لأنَّ علينا الآن أن نقوم بالإنتقال من تقييم الأحداث الداخلية إلى تقييم الأحداث الخارجية؛ ينبغي توجيه النظر نحو الخارج فنتطلع إلى ثقافة يمكن معرفتها من التجارب الأولى، ويمكن إعادة اكتشافها في العالم الكبير النابض، وعلى الفرد أن يستخدم صراعه وحنينه كألفباء تجعله قادراً على فهم مساعي البشر. لكن عليه أن لا يبقى مراوحاً هنا، بل عليه أن يواصل التسلق من هذه المرحلة إلى مرحلة أعلى؛ لأنَّ الثقافة لا تطلب منه خبرة داخلية فحسب، ولا تقييماً للعالم الخارجي الذي يتدفق حوله فحسب، بل تطلب منه في الأول والأخير عملاً، أي، كفاحاً من أجل الثقافة وعدوانية تجاه التأثيرات، العادات، القوانين، المؤسسات التي لا يتعرف على هدفه فيها: التي هي ولادة العبقري.

إنَّ أكثر ما يثير الانتباه بالنسبة لهذا الذي يكون قادراً على الوصول إلى المرحلة الثانية هو، *كم هي محدودة ونادرة المعرفة عن هذا الهدف*، برغم بذل جهود كبيرة من أجل الثقافة واستخدام طاقات عديدة لا توصف في خدمتها. يسأل المرء نفسه بدهشة: هل من الممكن أن تكون هذه المعرفة غير ضرورية كلياً؟ هل تبلغ الطبيعة هدفها حتى عندما تخطأ الأغلبية هدف مساعيها؟ لو عوّد الإنسان نفسه على أن تكون لديه أفكار راقية عن هدف الطبيعة اللاوعي، فمن الممكن أن لا يجد صعوبة في الإجابة: "نعم، هذا هو الحال! دع

البشر يعتقدون ويفكرون فقط عمّا يرغبون حول هدفهم النهائي، إلاّ أنهم في توقهم القاتم واعون تماماً للطريق الصحيح."[1] لكي يكون المرء قادراً على معارضة هذا، فإن عليه أن يكون قد عاش جزءاً من التجارب؛ لكن إذا كان المرء مقتنعاً فعلاً أن هدف الثقافة هو تنمية بشر حقيقيين وليس شيئاً آخر، ويرى بنفس الوقت كيف أنّ إنتاج هؤلاء البشر ما يزال برغم كل هذا التفاخر البرّاق عن الثقافة لا يميز نفسه جوهرياً عن معاملة قاسية مستمرة للحيوانات، فسيجد الإنسان أن من الضروري جداً تعويض هذا "التوق القاتم" أخيرا بمسعى واع. ولن يكون ممكناً أطول أن يستخدم هذا الباعث اللاواعي حول هدفه، التوق القاتم المحتفى به، لأهداف مختلفة تماماً ويوجهه إلى طرق لا تقود أبداً إلى الهدف الأسمى: إنتاج العبقري. لأنه يوجد هناك ضرب من أشكال فاسدة، آلية للثقافة - لا يحتاج المرء إلّا أن ينظر إلى ما حوله فقط! وبالذات هذه القوى التي تقوم حالياً بالكثير لتشجيع الثقافة، لديها دوافعها ولا تتعامل معها بنيّة خالصة زاهدة.

بين تلك القوى أولاً، جشع رجال الأعمال[2]: إنها بحاجة إلى دعم الثقافة وتدعم الثقافة كرد على الجميل، لكنها تتمنى بنفس الوقت أن تحدد أهدافها وأُطرها. من هذه الزاوية جاءت الفرضية المفضلة وسلسلة من الاستنتاجات التي تقول: "أكبر قدر ممكن من التعليم والمعرفة؛ يخلق حاجة كبيرة قدر الإمكان، التي تفضي بدورها إلى إنتاج كبيرعلى قدر الامكان، ومن ثم تؤدي في نهاية المطاف إلى سعادة وربح كبيرين قدر الإمكان" - هذه هي الصياغات الغاوية.

---

(1) بتصرف الاستشهاد من **فاوست** غوته.
(2) الترجمة الحرفية هي "جامعو المال".

يعرّف أتباعها التعليم باعتباره بصيرة في كيفية أن يصبح المرء معاصراً تماماً في حاجاته وإشباعها، بنفس الوقت الذي يتعلم المرء فيه ضبط الوسائل التي ينبغي توفرها لكي يربح نقوداً بأكثر ما يمكن. سيكون الهدف إذن خلق أكبر عدد ممكن من البشر المتسوقين، بنفس المعنى الذي يتحدث به المرء عن تسويق العملات النقدية؛ وطبقاً لهذا المفهوم سيصبح شعب سعيداً جداً كلما كان هناك عدد أكبر من هذا النوع من البشر. وهكذا فإن الهدف الرئيسي للمؤسسات التعليمية المعاصرة هو أن تؤدي إلى أن يصبح كلُّ فرد "تسويقياً" بقدر الإمكان، وأن يتربى كل فرد بهذه الطريقة بحيث يمكنه الحصول على أكبر حصة ممكنة من السعادة والربح من مستوى معرفته وتعليمه المحدد. وما هو مطلوب هنا هو أن يكون الفرد قادراً، بمساعدة مثل هذه التربية، على تقييم نفسه بالضبط، بحيث يعرف ما يطلبه من الحياة؛ وأخيراً يتم الادّعاء بأن هناك تحالفاً طبيعياً وضرورياً بين "الذكاء والملكية"، بين "الثروة والثقافة"، ويؤكد المرء علاوة على ذلك، أنّ هذا التحالف هو ضرورة *أخلاقية*. هنا يكره المرء أي تربية تخلق العزلة، تستغرق وقتاً طويلاً وتضع لها أهدافاً تتجاوز المال والاستهلاك؛ تعود المرء أن ينظر بارتياب إلى مثل هذه الأشكال الجادة من التربية من خلال تسميتها "أنانية مهذبة" أو "أبيقورية تربوية فاجرة". نعم، إنّ الأخلاق المهيمنة تطلب العكس تماماً، أي تعليم سريع، بحيث يصبح المرء بسرعة مخلوقاً محصلاً للثروة، لكن بنفس الوقت تعليماً محكماً، بحيث يصبح المرء مخلوقاً محصِّلاً للمال. تُسمح الثقافة للانسان فقط بالقدر الذي تكون في خدمة الحياة الاقتصادية ومصالح التجارة العالمية، لكن هذا المقدر مطلوب منه

أيضاً. باختصار: "الإنسان له الحق بحياة سعيدة، ولهذا السبب فإنه بحاجة إلى التعليم، ولكن لهذا السبب فقط!".

ثانياً هناك جشع[1] *الدولة*، الدولة، التي تتمنى أيضاً أن تنتشر الثقافة إلى أكبر عدد ممكن، والتي تملك أكثر الوسائل فعالية لإشباع هذه الرغبة. على افتراض مقدماً أنّ الدولة تعرف قوتها بما فيه الكفاية لتكون قادرة ليس فقط على تحرير طاقات الثقافة، بل وتربطها أيضاً إلى عجلتها في الوقت المناسب، على افتراض أنّ قاعدتها عريضة ومتينة بما فيه الكفاية بحيث تكون قادرة على حمل كل سقف الثقافة، فإن انتشار التعليم بين مواطنيها يصب في نهاية المطاف في مصلحتها فقط في تنافسها مع الدول الأخرى. إنّ "الدولة المثقفة"[2] التي يتحدث المرء عنها كثيراً في أيامنا، أمامها مهمة إطلاق القوى الروحية إلى المدى الذي تخدم فيه وتنفع مصالح المؤسسات القائمة، لكن ليس أكثرمن ذلك. مثل نهر مندفع في الغابة الذي يتم إعادة توجيهه بواسطة السدود والقنوات وأساليب أخرى، بحيث يمكنه تحريك طاحونة بقوة ضعيفة، بينما ستعرّض قوته الجامحة على العكس من ذلك الطاحونة إلى الخطر بدلاً من أن تكون في منفعتها. هذا التحرير للطاقات هو بنفس الوقت، وإلى درجة أكبر، تقييدٌ لها. على المرء أن يتذكر فقط ما فعله جشع الدولة تدريجياً بالمسيحية. إنّ المسيحية هي بالتأكيد واحدة من أنقى الإيحاءات المحفزة للثقافة وخاصة الحافز للإنتاج المستمر للقدّيسين؛ لكن طالما أنها استخدمت غالباً لتشغيل طواحين سلطة الدولة، فقد أصبحت تدريجياً مريضة

---

(1) يمكن أيضا ترجمتها أنانية أو طمع الدولة.
(2) يمكن ترجمتها أيضا إلى "الدولة المتحضرة".

حتى النخاع، منافقة، مزيفة ومناقضة لمقاصدها الأصلية. حتى الحدث الأخير الكبير في تاريخ المسيحية، الإصلاح الديني الألماني، لم يكن سوى اشتعال وانطفاء مفاجئ، لو أنه لم يسرق وقوداً جديداً من نار الصراع بين الدول.

ثالثا، تُشجع الثقافة من قبل كل أولئك الذين يريدون إخفاء *المحتوى السيئ والممل* من خلال ما يسمى بـ "*الشكل الجميل*". على افتراض أن المرء يقيّم المحتوى عادة من المظهر الخارجي، يتم تضليل المراقب من خلال الظواهر الخارجية، بواسطة الكلمة، الرمز، الزخرفة، التزويق، والأساليب الحاذقة لاستخلاص النتائج المزيفة عن المحتوى. يبدو لي أحياناً كما لو أن البشر المعاصرين يضجرون بعضهم البعض الآخر بصورة كبيرة بحيث أنهم يشعرون في النهاية الحاجة إلى جعل أنفسهم مثيرين للاهتمام بمساعدة كل أنواع الفنون. فيستخدمون فنانيهم لكي يقدموا أنفسهم كوجبات طعام مخلّلة وشهية؛ إنهم يرشون أنفسهم بكل أنواع الطيوب الشرقية والغربية، وفي واقع الأمر أنهم الآن يفوحون بالتأكيد برائحة مثيرة للاهتمام، بكل الشرق والغرب، ويسعون لإرضاء كل ذوق؛ ينبغي إرضاء كل فرد بغض النظر عما إذا كان راغباً في رائحة طرية أم كريهة، لشيء راق أم لشيء فلاحي بسيط، ليوناني أم صيني، لتراجيديا أم بذاءات درامية. أشهر رؤوساء المطابخ المعاصرين، الذين يريدون أن يكونوا بأيّ ثمن مثيرين للاهتمام ومعنيين، يمكن العثور عليهم كما هو معروف بين الفرنسيين، والأسوأ بين الألمان. هذه الحقيقة في الأساس هي أكثر عزاءً للأخيرين منها للأولين، وليس هناك سبب أن نغضب من الفرنسيين عندما يسخرون منّا لكوننا غير مثيرين، وتنقصنا

الأناقة، وعندما يرغب أحد الألمان أن يكون دمثاً وراقياً، تـذكّرهم بالهندي الذي يريد الحصول على حلقة في أنفه ويصرخ من أجل أن يُوشم.

– هنا لا بد لي أن استطرد قليلاً. منذ الحرب الأخيرة مع فرنسا تغيرت أشياء كثيرة في ألمانيا، ومن الواضح، أنّ العائد إلى السلم حمل معه أيضاً بعض المطالب الجديدة المحددة المتعلقة بالثقافة الألمانية إلى المانيا. كانت الحرب بالنسبة للعديدين هي أول رحلة لهم إلى نصف العالم الأكثر رقياً؛ كم يبدو المنتصر الآن غير متعصب حين لا يأنف التعلم من ثقافة المهزوم! سيتم باستمرار التنويه خاصة إلى الفنون اليدوية لكي ننافس جارنا الأكثر حضارة، وستؤثث البيوت الألمانية على النمط الفرنسي، حتى اللغة الألمانية ستكتسب من خلال إقامة أكاديمية طبقاً للنموذج الفرنسي "ذوقاً سليماً" وتخلّص نفسها من أي تأثير مريب تركه غوته افتراضاً عليها– كما أشار إلى ذلك حديثاً الأكاديمي البرليني دوبويس– ريمون. سعت مسارحنا منذ فترة طويلة وبأسلوب مشرّف وصادق إلى نفس الهدف، حتى العالم الألماني الأنيق تم اختلاقه منذ فترة طويلة– وعلى المرء أن يتوقع إذن، أنّ كل شيء لا يمتثل بصورة صحيحة إلى قانون الأناقة – كالموسيقى الألمانية، التراجيديا والفلسفة – سيتم الغاؤه تدريجياً باعتباره غير ألماني. لكن لا يوجد هناك سبب لدعم الثقافة الألمانية بحجم الإصبع، إذا فهم الالماني الثقافة، التي ما تزال تنقصه وعليه أن يسعى اليها الآن، لا شيء سوى فنون ومهارات لتجميل الحياة– من جملتها إبتداعات معلمي فنون الرقص ومنجّدي آثاث البيوت– وإذا كان عليه لغوياً أن يبذل جهداً لتنفيذ القرارت الأكاديمية أو لكي يعرض سلوكياته الطيبة فقط. يبدو

أن الحرب الأخيرة والمقارنة الشخصية مع الفرنسي، مع ذلك، لم تكن باعثاً لطرح مطالب أعلى من تلك؛ على العكس من ذلك، غالباً ما تراودني الشكوك في أنّ الألماني يريد أن يفلت بالقوة من الواجبات القديمة التي تفرضها عليه موهبته المدهشة وجدِّية طبيعته العميقة. إنَّه يفضل أن يلعب دور المهرج ويتعلم الفنون والأساليب التي تجعل الحياة أكثر متعة. لكن لا يمكن للمرء أن يشنع الروح الألمانية بعمق أكبر من أن يعاملها كما لو أنها شمعٌ يمكن صبّه بأية طريقة يرغبها المرء ويجعلها على هذه النحو أيضاً أنيقة. وإذا يكون هذا الامر للأسف حقيقة بحيث إنّ عدداً كبيراً من الألمان يرغبون إلى درجة كبيرة أن يكونوا معجونين ومجبولين بهذه الهيئة، فإن على المرء أن يردد باستمرار كرد على الوضع المذكور، حتى يتم في النهاية الإصغاء اليه: لم تعد الطريقة الألمانية القديمة تعيش معكم، التي هي بالتأكيد صعبة، حادة ومليئة بالمقاومة؛ لكنها ما تزال أكثر مادة مطلوبة- التي يسمح لكبار المبدعين فقط الاشتغال عليها، لأنهم وحدهم الجديرون باستخدامها. اما ما هو في دواخلكم فانه، على العكس، مادة ناعمة، لينة؛ اصنعوا منها ما شئتم، غيروها إلى لعب أنيقة وأصنام مثيرة للاهتمام- هنا ستؤكدون ايضا ملاحظة ريتشارد فاغنر: "الالماني، جلف واخرق حين يدّعي الكياسة والادب؛ لكنه سامي ورفيع لكل شخص حينما تدب فيه النار." لدى كل الاشخاص الأنيقين سبب للحذر من هذه النار، وإلاّ فإنها ستلتهمهم ذات يوم مع كل لعبهم وأصنامهم الشمعية. يمكن للمرء بالتأكيد أن يكتسب ذلك الميل نحو "الأشكال الجميلة" الذي يهمين الآن في ألمانيا من مصادر أخرى وأعمق: من الاستعجال الشائع، هذا التطلع الخالي في كل لحظة من الروح، هذا الانهماك الذي يقطف

الثمار من غصنها قبل أن تنضج بسبب الإجهاد والإرهـاق النفسـي الذي يحفر تجاعيد عميقة في وجوه البشر ويترك بصماته على كل شيء يفعلونه. إنهم يندفعون في قلق أبدي، كما لو أن شراباً سحرياً سحرهم وجعلهم يلهثون، كعبيد منهكين من اللحظة، المعاني، والنضوج: ولهذا يصبح النقص المخزي في الكرامة واللياقة واضحاً جداً، وهذا يلزم من جهته أناقة مزيفة لإخفاء مرض الاستعجال المهين. وعلى هذا النحـو ترتبط الشهوة المطبوعة بالموظة المتطلعة نحو الأشكال الجميلة ارتباطـاً وثيقاً بالجوهر البشع للإنسان المعاصر: فالأول ينبغي أن يخفي، والثـاني أن يكون مخفياً. أن تكون متعلماً اليوم يعني: أن لا تسـمح لأحـد أن يلاحظ، كم هو بائس ومثير للشفقة الإنسان، كم يسعى بجشع نحو ما يريده، كم نهم لكنزه، وكم يتمتع به بعار وأنانية. عندما ذكـرت في السابق إلى أحد ما أنَّ الثقافة الألمانية غير موجودة، استلمت أكثر مـن مرة الجواب: "إن هذا الأمر طبيعي جداً؛ لأنَّ الألمان كانوا حـتى الآن فقراء وبسطاء. دع مواطنينا يصبحون أغنياء وواثقين مـن أنفسـهم فحسب، فإنهم سيحصلون على ثقافة أيضاً!" يمكن أن يصنع الإيمـان البَرَكة، لكن *هذا* الإيمان له تأثير معاكس عليّ، لأنني أشعر، أن الثقافة الألمانية التي يعتقد هنا أنَّ لها مستقبلاً - ثقافة الثروة، حسن السـلوك وثقافة الكياسة المتخيلة- هي عدو لدود للثقافة الألمانية التي أعتقد بها. ولنعترف، أن كلّ شخص مضطر للعيش بين الألمان يعـاني بصـورة كبيرة من الشحوب المرعب لحياتهم وأفكارهم، من انعدام أشـكالهم، حماقتهم وبلادة أذهانهم، فظاظة في أكثر المسائل الحساسة، حتى أكثـر من ميلهم إلى الحسد والغموض الخاص وعدم نقاء في الشخصية؛ تؤلمه وتسخطه فرحتهم المتجذرة في ما هو زائف وغير أصيل، وفي المحاكات

الرديئة، وفي الترجمة لأمور أجنبية جيدة إلى لغة ألمانية رديئة: لكن الآن، حيث عاش المرء، إضافة إلى ذلك، وباعتبارها اقصى تجربة مؤلمة من الجميع، اضطرابهم الحامي، وبحثهم عن النجاح والربح، وتقييمهم المغالي للحظة، فإنه يكون ناقماً بلا حدود عند التفكير بأن كل هذه الأمراض والإخفاقات لم يتم في الواقع معالجتها، بل تغطيتها فقط بطبقة طلاء جديد- بـ "ثقافة الشكل المثير"! وهذا يحدث في أمة ولدت *شوبنهاور وفاغنر*! وستلدهم مرات عديدة في المستقبل! أم أننا نخدع أنفسنا جداً؟ ألا يقدم هذان اللذان أشرنا إليهما أيّ ضمانة البتة أن طاقات كطاقاهم ما تزال موجودة في العقل والروح الإلمانيين؟ هل هما استثناءات، كما كانت النباتات المتسلقة الأخيرة للنوعيات التي كانت ذات مرة ألمانية؟ أعترف أنني هنا في حيرة، ولهذا ساعود إلى الأفكار العامة التي يسعى القلق والشك غالباً صرفي عنها. لم أشر بعد إلى كلّ القوى التي تدعم الثقافة، التي رغم أنها تطالب بالثقافة، فأنها تفعل ذلك بدون أن تعترف بهدفها، الذي هو إنتاج العبقري. لقد تم ذكر ثلاث قوى؛ جشع التاجر، جشع الدولة، وجشع كلّ أولئك الذين لديهم سبب لإخفاء أنفسهم خلف الشكل. وأشير رابعاً إلى جشع *العلوم* والسمات الخاصة لخدامها، *رجال العلم*.

يرتبط العلم بالحكمة كما ترتبط الأخلاق بالمقدس: إنه بارد وجاف، بلا حب، ولا يعرف أية مشاعر عميقة لعدم الرضى والحنين. إنه مفيد لنفسه بنفس القدر الذي يؤذي خدمه، لأنه ينقل صفاته إليهم وبالتالي يشلّ إنسانيتهم. طالما يفهم المرء بالثقافة تحديداً تقدم العلم، فأنها ستسحق ببرودة قاسية البشر المتألمين العظماء؛ لأنّ العلم لا يرى في كل مكان سوى قضايا المعرفة، ولأن الألم في الواقع لا ينتمي إلى عالمه، إنه

أمر غير مفهوم ولهذا يشكل في أفضل الأحوال مشكلة جديدة.

إذا تعود إنسان أولاً على جعل كل خبرة شأناً عقلياً خالصاً وترجمها إلى لعبة ديالكتيكية بصيغة سؤال وجواب، فإنَّ من المدهش أن ترى، كيف أنَّ مهنة كهذه ستذوي المرء في وقت قصير، وتحوله إلى هيكل عظمي. كل فرد يعرف ويدرك هذ الحقيقة: فكيف يكون ممكناً مع ذلك بالنسبة للشباب أن لا يرتعبوا من منظر هؤلاء البشر المنهكين، بل على العكس يخضعون أنفسهم على نحو أعمى مراراً إلى العلوم دون تحفظ أو اصطفائية؟ لا يمكن أن يعزى إلى نزوع مزعوم "نحو الحقيقة"، إذ كيف يمكن أن يوجد على الإطلاق دافع تجاه معرفة باردة، بلا عاقبة! إنَّ هذا الذي يحثّ في الواقع خدم العلم من السهل أن تراه العين غير المتحيزة: نقترح عموماً أن نحلل ونشرّح العلماء الذين عوّدوا أنفسهم بلا خجل على نبش وتفكيك كل الأشياء في العالم، وحتى الأكثر قيمة أيضاً! إذا كان عليّ أن أقول، ما أفكر به، فإنني سأقول التالي: يتكون العَالِم من شبكة متنوعة من الدوافع والحوافز، إنه سبيكة غير نقية بكل ما في الكلمة من معنى. فهناك قبل كل شيء فضول قوي متزايد دائماً، البحث عن المغامرات في مجال المعرفة، الإغراء المستمر الذي يمارسه الجديد والنادر على النقيض من القديم والممل. من ثم هناك حافز معين نحو البحث الدياكتيكي، فرحة الصياد في تعقبه طريق الثعلب الماكر في حقل الفكر؛ ولهذا فهي ليست الحقيقة التي يتم البحث عنها في الواقع بل البحث ذاته، بحيث تكمن المتعة الحقيقية في التسلل إلى داخل حياة الحقيقة، محاصرتها وقتلها بدقة. يضاف إلى ذلك الدافع إلى التعارض، رغبة الفرد إلى وعي الذات وإلى جعل نفسه معارضاً للآخرين: الفرحة الحقيقية تكمن في الصراع

والهدف الحقيقي هو الانتصار الشخصي، بينما الصراع من أجل الحقيقة هو مجرد ادعاء. من ثم فإن رجل العلم مدفوع إلى حد كبير أيضاً إلى اكتشاف "حقائق" معينة، *يحفزه* إذعانه لأشخاص حاكمين محددين، طبقات، آراء، كنائس، حكومات: إنَّه يشعر أنَّ من مصلحته أن يجلب الحقيقة إلى جانبهم. السمات التالية تظهر بوضوح أيضاً عند العالِم، بأقل انتظام من السابقة لكن بصورة كافية إلى حد ما: أولاً الاستقامة والإحساس بالبساطة، التي هي سمات قيمة جداً، إذا لم تكن أكثر من مجرد تعبير عن التعنت والنقص في ممارسة التأمل، التي تقتضي أيضاً درجة من الذكاء. في الواقع أنَّ على المرء أن يكون حذراً بعض الشيء في كل مرة يقابل المرونة والذكاء؛ لأنَّ هذه السمات يمكن أن تكون علامة على نقص في الشخصية. ومن الجانب الآخر فإن هذه النزاهة هي عموماً قليلة القيمة، ونادراً ما تستخدم في العلم، طالما أنها مقيّدة كلياً بالأعراف وعادة ما تقول الحقيقية فقط عندما يتعلق الأمر بأشياء عادية أو بـ *اديافورا*"[1]؛ لأنَّ الكسل يجد أنَّ من الأسهل قول الحقيقة في تلك الحالات من التزام الصمت حولها. ولأن كلّ شيء جديد يتطلب أن يعيد المرء تقييم آرائه، فستبجّل هذه النزاهة دائماً، في حالة الضرورة، الآراء القديمة وتلوم المبدع على افتقاره *الإحساس بما هو صحيح*[2]. والسبب لمعارضتها تعاليم كوبرنيكوس، أن الظاهري والتقليدي كانا في هذه الحالة إلى جانبها. إنّ كراهية العُلماء المألوفة للفلسفة هي بالدرجة الأولى كراهية لسلسة طويلة من استنتاجات

---

(1) بالاغريقية ومعناها نشاطات لا تنفع أو تؤذي. نشاطات لا اهمية لها اخلاقيا أو دينيا adiafora.

(2) في الاصل باللاتينية.

وبراهين مصطنعة. في الجوهر، أنَّ لدى كلّ جيل من العلماء في الواقع قاعدة غير واعية من الحصافة المسموح بها؛ ما عـدا ذلـك سيكون مشكوكاً فيه ويعتبر كهجوم تقريباً على الاستقامة. - ثانيـاً، نظـرة واضحة للأشياء القريبة ممزوجة بقصر نظر كبير لكل الأشياء البعيـدة وما هو عامّ. مدى رؤية العالِم تكون عادة محدودة جـداً، وعليـه أن يجعل عينيه قريبةً من الهدف. إذا أراد العالِم أن يتحرك من نقطة قـام ببحثها للتو إلى نقطة أخرى، فإن عليه أن ينقل كل جهازه البصري إلى هذه النقطة. إنه يفصل الصورة حتى تتبقى منها أجزاء صغيرة، مثلمـا ينظر الشخص إلى خشبة المسرح من خلال منظار المسـرح، فـيرى أحياناً رأساً، وأحياناً أخرى قطعة ملابس، لكنه لا يرى أبداً المشـهد كله. إنه لا يرى أبداً هذه الأجزاء الصغيرة مجتمعة، لكنه يوافق علـى سياقاتها، ولهذا فإنه لا يملك فكرة واضحة عن أيّ شيء عام. لأنه غير قادر على رؤية جزء من نص ككلٍ، فإنه مثلا يقيّمه من خلال بعـض فقرات أو جمل أو أخطاء؛ لأنه عاجز عن تكوين فكرة شاملة؛ سيكون ميالاً للتأكيد على أنَّ لوحة زيتية هي كومة كتل غير متناسقة.- ثالثاً، ميول ونفور طبيعته رزينة وتقليدية. هذه السمة تساعده على أن يحـرز متعة خاصة في التاريخ، بمقدار ما يستطيع تتبع بواعث نـاس الماضـي انسجاماً مع البواعث التي يعرفها نفسه. يشعر الخُلد[1] باطمئنان أفضل في نَفَق الخُلد. إنه في مأمنٍ ضد كل فرضيات سطحية أو مغالية؛ إنـه ينبش، حين يكون مثابراً، ويستخرج كل بواعث الماضي العادية، لأنه يتعرّف عليها. ولهذا السبب بالذات، فإنه عادة عاجز عن فهم أو تقدير

---

(1) الخُلـد الفـأر الاعمـى الـذي يعـيش في حفـر تحـت الارض.

النادر، العظيم، والاستثنائي، أي ما هو جوهري وأساسي - رابعاً، حياة حسيّة مجدبة وفقيرة تجعله أن يكون قادراً حتى على تشريح الأحياء. هو لا يملك أية فكرة عن المعاناة التي تجلبها المعرفة عادة معها، ولهذا فهو شجاع جداً في مجالات ترتعش فيها قلوب الآخرين. إنه بارد ولهذا قد يبدو بسهولة قاسياً. يُعتبر جريئاً أيضاً، لكنه ليس جريئاً أكثر من البغل، الذي لا يعرف ما هو الدوار.- خامساً، قليل الثقة بالنفس، مساوٍ إلى الحياء. رغم أنّ عليهم أن يعيشوا في زاوية صغيرة بائسة من العالم، فإنهم لا يشعرون بأنهم يضحون بأنفسهم أو يضيعون حياتهم. ويبدو أنهم يدركون في أعماق أعماقهم أنهم لا ينتمون إلى المخلوقات المحلقة بل إلى الزواحف. تجعل هذه السمة رؤيتهم شيئاً مؤثراً.- سادساً، الولاء لمعلميهم وزعمائهم. إنهم يتمنون من كل قلوبهم مساعدتهم، وهم يدركون جيداً أنّ أفضل مساعدة لهم هو اكتشاف الحقيقة. إنهم والحق يعترفون بالجميل، لأنه بفضلهم فقط تم الحصول على إذن الدخول إلى قاعات العلم المقدسة؛ التي لم يكن بإمكانهم الدخول إليها بأنفسهم. لو أن عالماً اليوم يفتح حقلاً، بحيث تتمكن الأرواح الصغيرة أيضا العمل بمقدار من النجاح، فإنه يصبح مشهوراً خلال وقت قصير: ويكون الحشد كبيراً جداً الذي يحيط به. لكن كل هذه الأرواح الموالية والمعترفة بالجميل ستكون بنفس الوقت كارثة له، طالما أنّ الجميع يريدون تقليده، وبالنتيجة ستبدو نواقصه كبيرة ومبالغاً فيها بشكل غير متناسب، لأنها تظهر في أفراد صغار كهؤلاء، بينما هذا يكون مناقضاً لفضائله، التي تتضاءل بشكل غير متكافيء عندما يعرضها نفس هؤلاء الأفراد.- سابعاً، مواصلة روتينية لنفس الطريق الذي دفع عليه الباحث. ينبع إحساسه بالحقيقه من

إذعانه الغافل للعادة المكتسبة. شخصيات كهذه هم جباة[1]، معلقون، مصنفو فهارس وأعشاب؛ إنهم يدرسون ويبحثون في مجال محدد، لأنهم ببساطة لا يمكنهم تصور وجود مجالات أخرى. صنائعهم تذكرنا بغباء الجاذبية الهائل؛ لهذا السبب فإنهم غالباً فعّالون.- ثامناً، الهروب من الملل. المفكر الحقيقي يتوق أكثر من أي شيء إلى التفرغ، أما الباحث العادي فيهرب منه لأنه لا يعرف ماذا يفعل به. يكمن عزاؤه في الكتب؛ أعني أنه ينصت إلى كيف يفكر الآخرون، وبهذه الطريقة يضمن لنفسه الترفيه طوال اليوم. خاصة أنّه يختار كتباً التي يمكن بسبب تعاطفه وعدم تعاطفه أن تثير عواطفه ضمناً: أي كتب تدور حوله أو مكانته، سياسته أو جمالياته أو عقائده النحوية فحسب؛ وإذا كان لديه علاوة على ذلك علمه الخاص به، فلا ينقصه الترفيه أو الوسائل التي يطرد بها الملل. - تاسعاً، دافع كسب العيش ذاته، أي "قرقرة المعدة الفارغة" الشهيرة. يتم خدمة الحقيقة، عندما تكون في وضع تكسب فيه مباشرة رواتب شهرية وترقيات، أو على الأقل تكسب رضى أولئك الذين سيوزعون الخبز والمكافآت. لكن هذه الحقيقة فقط التي يتم خدمتها: ولذلك يمكن للمرء أن يرسم حدوداً بين الحقائق المربحة التي يخدمها العديد والحقائق غير المربحة: الأخيرة يمارسها قليلون جداً فقط- لأنّ أولئك ليس شعارهم *المعدة هي مانحة الروح الكريمة*[2].- عاشراً، اعتراف زملائه الباحثين، والخوف من الافتقار إلى اعترافهم هو باعث أندر وأسمى من السابق، رغم أنه أمر مألوف. كل أعضاء المصالح المتشابهة يراقبون بعضعهم البعض الآخر

(1) يمكن ترجمتها ايضا إلى "محصّلين، أو جامعي التحف والأشياء النادرة" الخ.
(2) باللاتينية في الاصل *Ingenii Largitor venter*

بغيرة، بحيث إنَّ الحقيقة التي يعتمد عليها الكثير جداً من - الخبز، المنصب والمكافآت- ينبغي تعميدها باسم مكتشفها الحقيقي. يعبر المرء عن احترامه الطنان عندما يكتشف آخر الحقيقة، بحيث يمكنه أن يطالب نفسه باحترام مماثل، لو أنَّ امرءا تمكن ذات يوم من العثور على الحقيقة بنفسه. يسعى الإنسان إلى كشف اللاحقيقة، الأخطاء بصورة مُدوّية، بحيث لا يكون هناك متسابقون عديدون: لكن هنا وهناك تُنسف الحقيقة الفعلية أيضاً، بحيث يفسح المجال على الأقل لفترة قصيرة، للأخطاء المستعصية والصفيقة مثلما هنا وفي أماكن أخرى ليس هناك نقص في "حماقات أخلاقية"، التي تسمى بطريقة أخرى مُزحاً خبيثة.- الحادي عشر، أولئك الذين صاروا علماء من الأباطيل، هم أيضاً ضرب نادر بالتأكيد. إنهم يبتغون قدر الإمكان مجالاً كلياً لأنفسهم ويختارون لأنفسهم لذلك شيئاً لافتاً للنظر، خاصة إذا كانت سبباً في تكاليف عالية غير طبيعية، سفرات، حفريات، ارتباطات عديدة في بلدان مختلفة. وهم عادة ما يكونون راضين بالتكريم، الذي يكمن في أن ينظر اليه ذاتياً بتعجب، ولا يفكرون في أن يجعلوا دراساهم العلمية كمصدر عيش. -الثاني عشر، هناك العلماء الذين صاروا علماء من أجل اللهو. تتكون تسليتهم من العثور على مسائل معقدة في العلوم وحلّها؛ ومن المهم أنهم لا يجهدون أنفسهم كثيراً، وإلاّ فإنهم سيفقدون الإحساس باللعب. لهذا لا يتغلغلون في أعماق المشكلة، بل إنهم غالباً ما يلاحظون أشياء لا يلاحظها أبداً المختص ذو مصدر العيش الجاد في عمله.- وإذا أشير ختاماً إلى التطلع إلى العدالة باعتباره الدافع الرابع عشر للعالِم، فسيعترض المرء ضدي. إنَّ هذا الدافع النبيل، الذي يمكن فهمه ميتافيزيقياً فقط، صعب جداً فصله عن

البقية، وإنه في الأساس مبهم ومستحيل أن تدركه العين الإنسانية؛ ولهذا السبب أضيف هذه النقطة الأخيرة بأمل ورع، أن يحدث هذا الباعث مرات وأن يصبح فعالاً بين العُلماء أكثر مما يصبح ظاهرياً. لأنَّ شرارة واحدة من نار العدالة التي تسقط في روح العالِم كافية لتضرم، تلتهم وتنقي حياته ومساعيه، فلا يجد بعد ذلك أية راحة جسدية وسلامة روحية، بل يكون مطروداً إلى الأبد من الجو الفاتر أو الجامد الذي ينجز فيه العُلماء عادة أعمالهم.

لو يتصور المرء الآن، أنَّ كلّ هذه العناصر أو بعضاً منها قد مُزجت وخضّت بقوة، فسيغرف كيف نشأ خادم الحقيقة. إنَّ من الغريب جدا أنَّ ميولاً إنسانية جداً بحجم صغير وبواعث صغيرة تمتزج معاً وتكون جزءاً من مستحضر كيمياوي من أجل منفعة هي في الأساس شأن إضافي- وفوق إنساني، خالص، وغير منطقي، ومن ثم معرفة بلا باعث. النتيجة أنَّ العالِم يظهر الآن في ضوء القضية المافوق ارضية، الرفيعة والنقية بجلاء، بحيث ينسى المرء تماما قضية الخليط والمزج اللذين كانا شرطين لنشوئه. لكن هناك أوقات يكون فيها المرء مجبراً على أن يفكر ويتذكر هذا: حين يتعلق الأمر بالضبط بأهمية العالِم للثقافة. إذا اتقن المرْء فن المراقبة، فإنَّه يرى تماماً، أنَّ العالم يكون بطبيعته غير مثمر- كنتيجة لنشوئه!- وأنه يضمر كراهية طبيعية معينة نحو الإنسان المثمر؛ لهذا السبب يكون العباقرة والعلماء دائماً في حرب مع بعضهم. لأنَّ الأخيرين يريدون قتل، تفكيك وفهم الطبيعة، بينما الأوائل يريدون إغناء الطبيعة بطبيعة حيّة جديدة؛ لهذا يكشف هذان النوعان فرقاً في العقلية والأفعال. لم تكن العصور المحظوظة تماماً بحاجة إلى العالِم و لم تعرفه، أما العصورالمعتلّة والكسولة

تماماً فقد قيّمته باعتباره أرقى وأجدر انسان ووضعته في مرتبة عالية.

من هو الطبيب الكفوء كفاية لكي يقرر، كم هو صحي أو مريض عصرنا! من الواضح أنَّ هذا العالِم ما يزال يحتل مكانةً عالية في مجالات عديدة ولهذا يمتلك تأثيراً ضاراً، خاصة حين يتعلق الامر بالعبقري القادم. ليس لدى العالِم عواطف تجاه محنة العبقري؛ إنه يتحدث عنه بصوت بارد وحاد، ولا يتردد في أكثر الأحيان عن الإعراض عنه كما لو أنه يعرض عن شيء منحرف وغريب لا يملك له وقتاً أو رغبة للعمل معه. كما لا يمكن العثور على معرفة هدف الثقافة فيه أيضاً.

لكن آخذين كلّ شيء بعين الاعتبار، ما الذي حصلنا عليه من كل هذه التأملات؟ لا توجد هناك أيّ معرفة عن هدف الثقافة في أي مكان حيث يُعتقد أنَّ للثقافة اليوم مسانديها الاقوياء. بغض النظر عما تصرح به الدولة عالياً عن جهودها في سبيل الثقافة، فانها تنمّي الثقافة لكي تفيد نفسها على وجه الحصر، وهي لا تمتلك تصوراً عن هدف أعلى من رفاهها ووجودها المستمر. إنَّ ما يريده رجال الأعمال حقاً عندما يطالبون بلا انقطاع بالتعليم والتدريس هو في المحصلة الاخيرة وعلى وجه الضبط النقود. وعندما يعزي المدافعون عن الشكل إلى انفسهم العمل الفعلي باسم الثقافة ويعتقدون، مثلاً، أنَّ كل الفن يعود إليهم وينبغي أن يكون في خدمة متطلباتهم، فمن الواضح جداً أنهم يطرون أنفسهم عندما يطرون الثقافة، وإنهم لهذا السبب ما يزالون أيضاً متورطين في سوء الفهم. لقد قيل بما فيه الكفاية عن رجل العلم المتبحّر. ولهذا نرى بأنهم، مهما تكن السلطات الأربعة متحمسة معاً لتعزيز مصالحها بمساعدة الثقافة،

أغبياء وبدون إلهام عندما لا تكون تلك المصالح مشمولة. ولهذا السبب لم *تتحسن الظروف* لظهور العبقري في العصر الحديث، وازدادت الكراهية نحو الأشخاص الحقيقيين إلى درجة أنَّ سقراط لا يمكنه العيش معنا ولا يمكنه بحال من الأحوال بلوغ السبعين.

أريد الآن أن أُذكّر بما أشرت اليه في القسم الثالث: لا يبدو عالمنا المعاصر بأكمله متماسكاً ومستقراً بما فيه الكفاية إطلاقاً، بحيث يتمكن الإنسان التنبوء بالخلود لمفهومه عن الثقافة. يمكن للمرء أن يرجح في الواقع، ان الألفية القادمة ستساهم ببعض الأفكار الجديدة، التي ستجعل شعر معاصرينا يقف. لن يكون *الايمان بالجوهر الميتافيزيقي للثقافة* في نهاية المطاف منذرا كما يبدو: لكن ربما تكون بعض الاستنتاجات المتعلقة بالتربية والنظام المدرسي التي يستخلصها المرء منها كذلك.

يتطلب الامر في الواقع طاقة تأملية استثنائية تماما لتكون قادراً على رؤية إلى ما بعد مؤسسات الوقت الحاضرالتعليمية، إلى تلك المؤسسات الغريبة والمختلفة كلياً، التي ربما تكون ضرورية لجيلين أو ثلاثة اجيال من الآن. فبينما جهود مربينا الحاليين في المؤسسات التعليمية العليا تخدم أما لتخريج عالم، أو موظف، صاحب عمل، أو ضيق أفق ثقافي، واخيراً وهو الأكثر شيوعاً، مُركباً خليطاً من كل تلك الأنواع، فستواجه تلك المؤسسات التي لم يتم ابتكارها بَعدُ مهمة أكثر صعوبة– رغم أنها ليست في الواقع مهة أكثر صعوبة في حد ذاتها، طالما أنها ستكون، على أية حال، أكثر طبيعية ولهذا الحد أيضا مهمة أسهل؛ وهل يمكن أن يوجد شيء أكثر صعوبة، مثلاً، من تدريب شاب ليكون باحثاً، كما يحدث هذا حالياً في أيامنا؟ تكمن

الصعوبة بالنسبة للبشرية مع ذلك في إعادة التعليم وتصور هدف جديد؛ وهذا يتطلب عملاً هائلاً، إذا كان ينبغي تبديل المبادئ الإساسية في نظامنا التربوي الراهن، الذي له جذور في العصور الوسطى والذي هدفه فعلاً هو إنتاج عالِم القرون الوسطى، بأفكار أساسية جديدة. وقد حان الوقت لكي نتخذ موقفاً واضحاً إزاء هذه التناقضات؛ لأنّ على بعض الاجيال أن تبدأ الصراع، إذا كان على جيل آخر أن يكسبه. حالياً يجد الفرد الذي أدرك مبدأ الثقافة الاساسي الجديد نفسه للتو على مفترق الطرق؛ فلو أنه سلك أحد الطرق فسيرحب به عصره، وسيغدق عليه بالأكاليل والمكافآت، وستحمله الجماهير الحاشدة إلى الامام، وسيكون هناك خلفه وأمامه العديد من الأشخاص المشابهين له، وحينما يطلق الرجل في الخط الامامي الشعار، يتردد صداه في كلّ الصفوف. دوّت هنا الوصية الاولى "ناضلوا مع عامة الشعب"، والوصية الثانية هي، أن يعامل كلّ مَن لا يقف مع الجماهير كعدو. الطريق الآخر سيقدم له رفاقاً نادرين جداً، إنه طريق أكثر صعوبة، أكثر تعذيباً، وانحداراً؛ سيسخر منه أولئك الذين سلكوا الطريق الأول لأنه اختار طريقاً أكثر مشقة وخطورة، وسيحاولون جذبه اليهم. وإذا حدث أنّ الطريقين تقاطعا مع بعضهما، فسيعامل بخشونة، ويتم إبعاده أو عزله عبر احتقاره والتخلي عنه. والآن، ماذا تعني مؤسسة ثقافية لكل هؤلاء الرحّالة المتباينين على طرق مختلفة؟ الحشد الهائل، الذي يندفع على الطريق الأول نحو الهدف، يفهمها كترتيبات وقوانين تنظمه وتجعله يتقدم إلى الامام، والتي يمكنها أن تكفر كل المتمردين والعزّل، كلّ الذين يبحثون عن أهداف سامية وبعيدة المدى. بالنسبة للمجموعة الثانية،

الأصغر يمكن أن يكون للمؤسسة هدف مختلف تماماً لانجازه؛ ينبغي أن تكون المؤسسة متراساً ضد الحشد الهائل، الذي يهدد بتفجيرها وتشتيتها، بحيث لا يتم إنهاك الأفراد الذين يؤلفونها ويتلاشون في وقت مبكر جداً أو يتم تغريبهم إزاء مهماتهم العظيمة. على هؤلاء الاشخاص أن ينجزوا عملهم- هذا هو مغزى تعاضدهم؛ وعلى كل الذين يساهمون في المؤسسة المساعدة عبر التطهرالمستمر والدعم المتبادل للتحضير داخل أنفسهم وحولهم لولادة العبقري وكمال عمله. ليسوا قلة هم، بما فيهم البعض من صفوف الموهوبين من الدرجة الثانية والثالثة، الذين أُعدّوا لمهة تقديم هذا الدعم، وعندما يخضعون أنفسهم إلى هذا المصير فقط، فسيشعرون بأنهم يقومون بواجبهم وأن حياتهم تملك هدفاً ومعنى. لكن في الوقت الحالي تم حرف هذه المواهب عن قرارها بواسطة الأصوات الغاوية من "ثقافة" آخر موظة، وتم تغريبها عن غرائزها؛ تم توجيه الإغراء نحو ميولهم الأنانية، ضعفهم وغرورهم. إنه لهم بالذات يهمس *روح العصر* بتزلف: "اتبعوني ولا تذهبوا إلى هناك!" فهناك ستكونون محض خدم، مساعدين، أدوات. ستقفون في ظلال كائنات أغنى، ولن تكونوا راضين عن انفسكم، ستقيدون كالعبيد، بل كالآلات: هنا معي ستتمتعون، كسادة، بحريتكم الشخصية، وستسطع مواهبكم بنورها الخاص، وستقفون أنفسكم في الصفوف الأولى، وسيتزاحم حولكم مشايعون كثيرون، وسيفرحكم بالتأكيد تهليل الرأي العام اكثر من الاستحسان النبيل الذي تنعم به أعالي العبقري الأثيرية الباردة". يمكن أن يستسلم حتى أفضل الناس إلى هذا النوع من الغوايات: وما هو باتّ هنا بالكاد ندرة وقوة الموهبة، بل بالأحرى تأثير نزعة أساسية

بطولية معينة ودرجة القربى العميقة والانهماك مع العبقري. لأنه يوجد هناك بشر الذين يشعرون كما لو أنها آلامهم *الخاصة* عندما يشاهدون كيف ينخرط العبقري في كفاح مضنٍ ويخاطر بتحطيم نفسه، أو عندما يُعامل طمع الدولة القصيرة النظر، سطحية جامعي الاموال، أو قناعة العلماء المجدبة، أعماله بلامبالاة: لهذا فإنني آمل ايضا، أنه يوجد هناك بعض الذين يفهمون ما حاولت قوله بهذا العرض لمصير شوبنهاور، والى أيّ مُرام، حسب رأيي، سيعلّم حقا شوبنهاور كمربٍ.

7

لنترك جانباً كل الأفكار عن المستقبل البعيد وإمكانية التغـــيير الراديكالي في نظام التعليم وبدلاً عن ذلك نسأل: ما الـــذي علـــى الإنسان أن يتمناه، وإذا اقتضى الامر، الحصول على فيسلوف متطور في الوقت الراهن، ليتمكن من التمتع بأيّة راحة على الاطلاق ويبلـــغ في أفضل الأحوال ضرباً من الوجود الشوبنهاوري- إنه مـــن غـــير ريب، ليس وجوداً سهلاً، لكنه ممكن بالتأكيد؟ ماذا ينبغي على المرء أن يبتكر علاوة على ذلك لجعل تأثيره على معاصريه أكثر امكانيـــة؟ وأية عقبات ينبغي على المرء أن يزيلها، لكي يتمكن مثاله من بســـط نفوذه، بحيث يتمكن الفيلسوف مرة أخرى تربية الفلاســـفة؟ هنـــا تقودنا تأملاتنا إلى الممارسات والوقائع الصعبة.

تريد الطبيعة أن تكون نافعة دائماً، لكنها لا تعرف أيـــن تجـــد افضل الوسائل والأدوات الملائمة لتبلغ هذا الهدف: وهذا هو أكثر ما تعاني منه، وسبب كآبتها. من المؤكد أن الطبيعة تريد في توقها الملح للانعتاق أن تجعل الوجود قابلاً للتفسير وذا معنى للإنسان من خلال

إنتاج الفيلسوف والفنان، لكن كم هو أمر مشكوك فيه، فاتر وضعيف هذا التأثير الذي تتركه عموماً على الفلاسفة والفنانين! وكم نادر على الإطلاق عمل هذا التأثير! إنها في حيرة بكيفية جعل الفيلسوف نافعاً؛ الوسائل التي تستخدمها تشبه أكثر من أي شيء آخر محاولة مترددة، فكرة عابرة، لهذا تفشل مرات عديدة بتحقيق أهدافها، ولا يصبح أغلب الفلاسفة نافعين. تبدو الطبيعة مسرفة، إلاّ أنه مع ذلك ليس إسراف المترف المفرط، بل إسراف عديم الخبرة. لو افترضنا، أنَّ الطبيعة كانت انساناً، فانها لن تكف أبداً عن لوم نفسها وعدم كفاءتها. تدفع الطبيعةُ الفيلسوفَ بين الناس كالسهم؛ إنها لا تصوب نحو هدف، لكنها تأمل أنَّ السهم ينغرز في مكان ما. لكنها تخطيء الهدف في مرات لا حصر لها وتكتئب لهذه الحقيقة. الطبيعة مفرطة في مجال الثقافة أيضاً، مثلما هي في حقل الزارعة والبذر. إنها تبلغ أهدافها بطريقة عادية وغبية، التي تكلفها الكثير من الطاقات. يرتبط الفنان بعشاق فنه كما يرتبط مدفع ثقيل بسرب عصافير. إنها علامة على السذاجة أن يشرع المرء باستخدام سيول كبيرة لإزالة قليلٍ من الثلج، أو أن يضرب إنساناً حتى الموت من أجل أن يقتل حشرة على أنفه. يدحض الفنان والفيلسوف، أن تكون الطبيعة غائية في اختيار الوسائل، رغم أنها تمثل دليلاً راسخاً ممتازاً على الحكمة في هدفها. إنها تصيب دائماً الأقلية فقط، لكن كان عليها أن تصيب الجميع – وحتى هذه الأقلية لم تصب بالقوة التي أطلق بها الفيسلوف والفنان اطلاقاتهما. إنه لمن المحزن، أن يصل بنا المطاف إلى تقييم الفن باعتباره علّة مختلفة جداً عن تقييمنا للفن كمعلول. كم هي هائلة كعلّة، وكم هي مشلولة وفارغة كنتيجة! ليس هناك شك، إنَّ الفنان

ينجز عمله طبقاً لإرادة الطبيعة من أجل خير الناس الآخرين: مع ذلك فإنَّه يعرف، أن لا أحد من أولئك البشر الآخرين سيفهم أو يحب أبداً عمله كما يفهمه ويحبه هو. إنَّ هذه الدرجة العالية من الحب والفهم جعلتها قوانين الطبيعة الخرقاء على هذا النحو ضرورية لكي يظهر الحب والتفاهم على مستوى أقل؛ تم استخدام الكبير والنبيل كوسيلة لكي يظهر الأقل والوضيع. الطبيعةُ إقتصاديٌ رديء: فمصاريفها أكبر بكثير من مداخيلها؛ بالرغم من كل غناها، فإنها محكومة عاجلاً أم آجلاً بالإفلاس. كان يمكن لها أن تنظم شؤونها بعقلانية اكبر لو كان قانون بيتها - تكاليفَ قليلةً وأرباحاً بمئات الاضعاف؛ إذا كان هناك، مثلا، فنانون قليلون فقط، وكانوا ضعفاء، لكن بالمقابل هناك اعداد كبيرة من جمهور متلق للفن، اقوى واكثر جبروتا من صنف الفنان؛ فستكون نتيجة العمل الفني بالمقارنة مع سببه كبيرة بمئات الاضعاف. أو ألا ينبغي على المرء أن يتوقع في أقل تقدير، أنَّ السبب والنتيجة سيكونان بنفس القوة؟- لكن كم كانت الطبيعة بعيدة عن بلوغ هذا التوّقع! يبدو غالباً كما لو أنَّ الفنان والفيلسوف خاصة، يصادف أن يعيش في عصره، كناسك أو رحالة مهجور أضاع طريقه. فكر بعظمة شوبنهاور الحقيقية فقط- ومن ثم بكم كان تأثيره على نحو مضحك محدوداً! ليس هناك أكثر خزياً لإنسان شريف في عصرنا من أن يرى، كيف يؤثر شوبنهاور عرضاً فيه، وأية قوى أو عجزة كانت مسؤولة حتى الآن عن أن يغدو تأثيره محدوداً جداً. أولاً، ولفترة طويلة كان قلّة القرّاء ضده بمثابة خزي دائم لأدب عصرنا. وحين كسبهم فيما بعد، فقد كان ضده عجز المدافعين عنه سابقاً. لكن الاسوأ من ذلك، يبدو لي، كان بلادة كل

الناس المعاصرين تجاه الكتب، التي لم يكن في بالهم أخذها بجدية؛ يضاف إلى ذلك ظهور خطر جديد ناشئ تدريجياً عن المحاولات المتعددة التي بُذلت لتكييف شوبنهاور لهذا العصر الواهن أو حتى لاستخدامه كبهارات مثيرة وفعالة، كنوع من فلفل ميتافيزقي. بهذه الطريقة أصبح تدريجيا بالتأكيد معروفاً ومشهوراً، وأعتقد أنَّ أغلبية الناس حاليا يعرفون اسمه مسبقاً أكثر من اسم هيجل: ومع ذلك فهو ما يزال ناسكاً وغاب تأثيره! ويعود الفضل لهذا الإنجاز قبل كل شيء إلى معارضيه الأدبيين الفعليين والجوقة المهللة من المعارضين، أولاً لأنَّ هناك عدداً قليلاً جداً من القرّاء من يتحمل قراءة كتبهم، وثانياً لأنهم يقودون ذلك الذي يستطيع التحمل إلى ذراعي شوبنهاور مباشرة؛ فمن ذا الذي يدع سائق حمار يقنعه بالعدول عن امتطاء حصان جميل، مهما أطرى صاحب الحمار بإفراط حماره على حساب الحصان؟

كل من أدرك اللاعقلانية في طبيعة هذا العصر، عليه أن يفكر بوسائل تقدم لها مساعدة قليلة: ستكون مهمته، مع ذلك، أن يجعل الارواح الحرّة، وأولئك الذين يعانون بعمق بسبب عصرنا مطّلعة على شوبنهاور، أن يجمعهم ويستخدمهم لتوليد تيار قادر على التغلب على العجز الذي تظهره الطبيعة عادة، وعلى هذا النحو في عصرنا أيضاً، في استخدامها للفلاسفة. سيدرك أمثال هؤلاء الناس أنَّ القوى التي تعيق تأثير فيلسوف عظيم هي نفس القوى التي تقف في طريق إنتاج فيلسوف؛ ولهذا السبب فإن لهم الحق باعتباره هدفهم أن يعدوا الطريق لإعادة إنتاج شوبنهاور، بمعنى، إعداد ولادة العبقري الفلسفي. لكن الذي عارض منذ البداية تأثير ونشر تعاليمه، والذي يريد بكل الوسائل

أن يمنع إعادة ولادة الفيلسوف، هو، ولأقول هذا بصراحة، فساد الطبيعة الإنسانية المعاصرة: الذي لهذا السبب أنّ على كل البشر العظام تبديد كمية من الطاقة غير معقولة في سياق تطورهم لمجرد أن يشقوا طريقهم خلال هذا الفساد في أنفسهم. العَالَم الذي دخلوه حالياً غارق في الدجل؛ وليس من الضرورة أن تكون عقائد دينية، بل يمكن أن تكون أيضاً مفاهيم مزيفة مثل "التقدم"، "التعليم العام"، "الأمة"، "الدولة الحديثة"، "النضال الثقافي"؛ ويمكن القول في الحقيقة، إنّ كل الكلمات التعميمية ترتدي حالياً ثياباً مصطنعة وغير طبيعية ومتكلفة، بحيث إنّ الأجيال القادمة الأكثر تنويراً ستتهمنا بأن نكون منحطين ومشوهين- مهما تبجّحنا عن "صحتنا". إنّ جمال الأواني القديمة، يقول شوبنهاور، يعود في الحقيقة إلى أنّها تعبر بطريقة ساذجة عما هدفت أن تكون إليه وتقوم به؛ ونفس الشيء يمكن قوله عن كل أدوات الازمنة القديمة؛ يشعر المرء وهو ينظر اليها، أنه إذا كانت الطبيعة قد أنتجت المزهريات، الجرار، المصابيح، الطاولات، الكراسي، الخوذات، الدروع، العربات المصفحة وغيرها، فإنها ستبدو كذلك. وبالعكس: إنّ كلّ مَن يراقب اليوم التصرفات المعاصرة العامة نحو الفن، الدولة، الدين، التعليم (ناهيك عن، ولأسباب وجيهة، أواني "عصرنا")، سيكتشف في الناس اعتباطية بربرية معينة ومبالغة في التعبير، ويكون العبقري في اغلب الاحيان معوّق في تطوره بسبب هيمنة مثل هذه المفاهيم الغريبة والاحتياجات الوهمية في عصره: هذه هي الضغوط المرهقة التي تضغط على يده بقوة غالبا، عندما يضعها على المحراث بخفيةٍ يتعذرُ تفسيرها[1]- بحيث ستحمل

---

(1) يمكن ترجمتها ايضا جرافة.

حتى أعماله البارزة إلى حد ما آثار هذا العنف ايضا، لأن عليها ان تشقّ طريقها بعنف.

إذا كان علي أن أُجمل الشروط المطلوبة التي ينبغي أن تتوفر لكي لا يتم في افضل الأحوال، وعلى أقل تقدير، خنق هذا الفيلسوف الوليد بفساد عصرنا الذي تم وصفه، فانني اشير إلى شيء غريب: إنها بالذات هذه الشروط التي ترعرع جزئياً إلى حد ما بظلها شوبنهاور عموماً. وهي لا ينقصها بالتأكيد الشروط المتعارضة: فقد وصل انحطاط العصر قريباً منه إلى درجة مخيفة، مثلاً، في شخصية أمِّه المغرورة والمدّعية ثقافياً. لكن يمكن القول إنَّ شخصية أبيه الجمهورية، الحرة والفخورة أنقذته من الأُم ووهبته أول شيء يحتاجه الفيلسوف: رجولة صارمة وصلبة. لم يكن أبوه موظفاً أو باحثاً: اصطحب معه ابنه في رحلات عديدة إلى بلدان أجنبية- كلها أمور نافعة، حين يتعين على الإنسان أن يتعلم لا أن يحترم الكتب بل البشر، لا الحكومات بل الحقيقة. لقد أصبح في وقت مناسب منيعاً ومحترساً من ضيق الأفق القومي؛ لقد شعر بالراحة في انكلترا، فرنسا وإيطاليا كما فعل في بلاده ولم يشعر بأقل تعاطف مع الروح الاسبانية. على العموم لم يعتبر الأمر شرفاً أن يكون مولوداً بين الألمان بالذات؛ وليس بإمكاني أن أقول، فيما إذا كان سيكون موقفه مختلفاً في ظل الأوضاع السياسية الجديدة. كما هو معروف، فقد اعتبر هدف الدولة الوحيد هو توفير الحماية ضد القوى الخارجية، والحماية من القوى في الداخل، والحماية من الحُماة. فلو تم تحميلها مسؤولية هدف آخر غير هدف توفير الحماية، فيمكن أن يتعرض هدفها الحقيقي بسهولة إلى الخطر-: ولهذا السبب أورث، وهو ما

يبغض كل من يسمى ليبرالي، ثروته إلى أهالي الجنود البروسيين الذين سقطوا في معركة عام 1848 من اجل النظام. من الآن فصاعداً ستصبح هذه على الارجح علامة على التفوق الروحي، حين يعتقد البعض، أنّ الدولة وواجباتها بسيطة؛ لأنّ الذي يمتلك *عاطفة فلسفية*[1] في داخله، لن يكون لديه وقت اطلاقا *للعاطفة السياسية*[2] وسيكون حذراً بذكاء من أن يقرأ الصحف يومياً، ناهيك عن يخدم حزباً سياسياً. لكنه لن يتردد لحظة واحدة في تقديم الدعم إذا واجهت بلاده مخاطر حقيقية. كل دولة يشغل فيها أي شخص آخر نفسه بالسياسة غير رجل الدولة هي دولة منظمة بصورة سيئة وتستحق الهلاك بسبب وجود سياسيين عديدين.

كانت الميزة العظيمة الاضافية التي تمتع بها شوبنهاور هي أنه لم يتم اختياره وتربيته منذ البداية ليكون باحثاً، بل عمل في الواقع، على مضض، بعض الوقت في مكتب تاجر، وتنفس على أية حال خلال كل سنوات شبابه الهواء الحر لبيت تجاري كبير. الباحث لا يمكنه أبداً أن يكون فيلسوفاً؛ فحتى كَانت لم يكن قادراً على ذلك، لكن دافع عبقريته الفطرية بقي على الرغم من ذلك حتى النهاية كما كان في ما يسمى المرحلة الخادرة[3]. إذا يعتقد المرء أنني أظلم بهذا القول كَانت، فهو لا يعرف، أنّ الفيلسوف ليس مجرد مفكر كبير، بل هو أيضاً إنسان حقيقي؛ ومتى صار الباحث في وقت ما إنساناً حقيقياً؟

---

(1) باللاتني في الاصل *furor philosophicus*

(2) باللاتينية في الاصل *furor politicus*

(3) بمعنى "الطور الذي يلي طور اليرقة، مثل دودة القز بعد تمام نموها، والذي يطلق عليه اسم العذراء.

إنَّ هذا الذي يسمح للمفاهيم، الأفكار، أحداث الماضي، الكتب أن تقف بينه وبين الأشياء، هذا الذي ولد، بناء على ذلك بمعنى أوسع، من اجل علم التاريخ- لن يرى ابدا الأشياء من المرة الاولى، ولن يكون هو نفسه أبدا واحداً من الأشياء المرئية التي تُرى لأول مرة؛ لكن هذين الشرطين معاً يخصّان الفيسلوف؛ لأنَّ اغلب التعاليم التي استوعبها كان عليه أن يكسبها من خارج نفسه ولأنه يقدم نفسه كانعكاس وتجريد موجز لكل العالم. إذا فهم المرء نفسه بواسطة آراء الآخرين، فليس من المستغرب أنه لا يرى شيئاً في نفسه سوى- آراء الآخرين! هكذا يرى ويعيش الباحثون. كان شوبنهاورعلى العكس محظوظاً بصورة لا توصف، بحيث أنه لم يكن قادراً على رؤية العبقري عن كثب في نفسه وحسب، بل وأيضاً خارج نفسه- في غوته: من خلال هذا التأمل الثنائي كوّن لنفسه معرفة وحكمة راسختين عن كل الثقافات والأهداف العلمية. وعرف بفعل هذه الخبرة كيف ينبغي على الإنسان القوي والحر، الذي تتوق اليه كل ثقافة فنية، أن يكون مختلفاً؛ فهل ما تزال لديه رغبة كبيرة كي يشغل نفسه بعد هذه النظرة بما يسمى "فن" بأساليب علم الإنسان الحديث أو المتعنتة في النقد؟ فهو قد شهد علاوة على ذلك شيئاً أسمى: مشهد مرعب في محكمة أخروية[1]، التي تم فيها وزن كل حيّ، حتى الأسمى والأكثر كمالاً، ووجد ناقصاً: لقد رأى القديس كقاض للوجود. لا يمكننا أن نقرر بدقة في أي وقت مبكر من حياته أدرك شوبنهاور هذه الصورة من الحياة بهذه الطريقة تماماً، التي حاول لاحقاً إعادة انتاجها في كل كتاباته؛ يمكن للمرء أن يبرهن أنَّ الشاب كانت لديه

(1) ما فوق الارضي.

هذه الرؤية الهائلة، ويميل إلى الاعتقاد، أنه كان يملكها في طفولتـــه. كل ما كسبه لاحقاً من الحياة والكتب، من كل ممالك العلوم، كان بالنسبة إليه تقريباً مجرد أدوات وألوان تعبير؛ حتى الفلسفة الكانتية[1] كانت بالنسبة إليه قبل كل شيء أداة خطابية استثنائية التي اســتطاع استخدامها للتعبير بوضوح أكبر عن هذه الصورة: مثلمـــا اســتطاع تماماً استخدام الميثولوجيا البوذية والمسيحية من حـــين إلى آخـــر إلى نفس الهدف. بالنسبه اليه كانت هناك مهمة واحدة فقــط ومئـــات الآلاف من الوسائل لإنجازها.؛ معنى واحد وهيروغلوفيات لا تحصى للتعبير من خلالها عنه.

كان من بين أكثر ظروف حياته المهيبة حقيقةَ أنه كان قـــادراً على العيش من أجل هذه المهمة انسجاماً مع شعاره *ليكـــرس المـــرء حياته للحقيقة*[2]، ولم تتمكن أيٌّ من ضرورات الحياة التافهـــة مـــن زعزعته:- ونعرف، بأيّ أسلوب مهيب شكر أباه عن كل هذا. على العكس من ذلك كان الإنسان النظري في ألمانيا في أكثـــر الأحـــوال ينجز قراره العلمي على حساب نقاء شخصـــيته، مثـــل "صـــعلوك مفكر"[3]، الذي يطمع بالمناصب والأوسمة، حذراً ومتكيّفاً، متملقـــاً أولئك الذين لديهم مناصب ونفوذ. من كل الإهانات التي وجههـــا شوبنهاور إلى العديد من العلماء، لا شيء أهانهم أكثر من الحقيقة غير السارة بأنه لا يشبههم.

---

(1) نسبة إلى الفيلسوف الالماني كَانت.

(2) باللاتنينة في الاصل vitam impendere vero

(3) يمكن ترجمتها الذى يفكر مليا.

8

وهكذا فقد أشرت إلى بعض الشروط التي ينبغي على الأقل توفرها لكي يمكن أن يظهر العبقري في عصرنا: شخصية رجولية حرة، معرفة مبكرة عن الإنسانية، بدون تربية علمية، دون ضيق أفق وطني، حر من كسب لقمة العيش، لا روابط مع الدولة - باختصار، حرية، حرية ودائما حرية: نفس الجو الخطر والمدهش الذي ترعرع في ظله الفيلسوف اليوناني. إنّ هذا الذي يريد أن يتهم الفيلسوف لنفس الشيء الذي اتهم فيه نيبور افلاطون - بانه مواطن سيئ- عليه أن يقوم بذلك ويكون هو ذاته مواطناً صالحاً: فسيكون هو وافلاطون على حق. سيعتبر شخص آخر هذه الحرية غطرسةً[1]: هو أيضاً على حق، لأنه نفسه لن يقوم بأيّ شيء تجاه هذه الحرية وسيكون متغطرساً جداً إذا طالب بها لنفسه. إنّ هذه الحرية هي إثم ثقيل في الواقع لا يمكن التكفير عنه إلاّ من خلال أعمال عظيمة. كل

(1) هذه المفردة تستخدم اصلا في الملاحم الاغريقية بمعنى المبالغة، الفخر، الجرأة أو الوقاحة.

أبناء الأرض العاديين لهم الحق أن ينظروا بحسد إلى انسان يتم تفضيله بهذه الطريقة: لكن فليحمه الرب من كونه فضّل نفسه أن يكون بهذه الصورة، أيّ تم تحميله واجباً مرعباً جداً. لأنه سيهلك حالاً بسبب حريته وعزلته، وسيجعله المللُ أحمق، أحمق شريراً-

ربما يوجد بعض الآباء الذين يمكنهم أن يتعلموا من النقاشات المذكورة عن كيفية تربية ابنائهم؛ مع أنّ المرء لا يمكن بالطبع أن يتوقع، أنّ الآباء يريدون بالضبط أن يصبح ابناؤهم فلاسفة. من الراجح أنّ الآباء اعتبروا هذا دائماً أمراً شاذاً بكل ما في الكلمة من معنى، ولهذا عارضوا أن يكون ابناؤهم فلاسفة؛ وكما هو معروف فقد وقع سقراط ضحية حنق الآباء على أنه "أغوى الشباب"، واعتبر أفلاطون لنفس السبب أنّ من الضروري تأسيس دولة جديدة كاملة حيث لا يكون ظهور الفيلسوف معتمداً على حماقة الآباء. ويبدو الأمر تقريباً كما لو أنّ أمنية افلاطون تحققت. لأنّ الدولة الحديثة تعتبر أمر تشجيع الفلسفة في كل الأحوال كواحد من واجباتها، وتبحث باستمرار عن بشر يمكن لها أن تمنحهم الحرية المباركة التي نعتبرها أكثر الشروط الجوهرية لنشأة الفيلسوف. إلّا أنّ أفلاطون لاقى مصيراً مأساوياً على نحو فريد في التاريخ: فحالما ظهر بناء يتوافق جوهرياً مع اقتراحاته، اتضح دائماً عند النظر إليه عن كثب أنه كان تغييراً قبيحاً طفيلياً تقريباً مثلما كانت دولة القرون الوسطى الأكليرية بالمقارنة بحكم "أبناء الله" الذي حلم به افلاطون. بالتأكيد أنّ آخر شيء تريد الدولة عمله هو جعل الفلاسفة حكاماً- حمداً لله على ذلك! سيضيف كل مسيحي-: لكن حتى تشجيع الفلسفة كما تفهمه الدولة ينبغي معاينته ذات يوم لرؤية فيما إذا كانت الدولة

تفهمه بمعنى *أفلاطوني*، أعني بجدية وصدق، كما لو أنه كان هدفها الأسمى انتاج أفلاطونيين جُدد. إذا ظهر الفيلسوف كقاعدة في عصره مصادفة- فهل ستجعل الدولة هذا إذن من واجبها، أن تفهم بوعي هذه المصادفة باعتبارها ضرورة وتمد يد المساعدة هنا في هذه الحالة أيضاً إلى الطبيعة؟

للأسف نعرف من خبرتنا، أنَّ الموقف مختلف - وحتى ما هو أسوأ: الخبرة تعلمنا، أن لا شيء يقف في طريق ولادة وتكاثر الفلاسفة العظماء الطبيعيين كما يفعل الفلاسفة السيئون الذي يعملون من أجل الدولة. إنه واقع مؤلم، اليس كذلك؟ - كما هو معروف كان هذا هو الأمر الذي القى عليه شوبنهاور النور أولاً في أطروحته الشهيرة عن الفلسفة الجامعية. أتناول هذا الموضوع مرة أخرى: لأنَّ على المرء أن يجبر الناس على أن تأخذ الأمر على محمل الجد، أي بمعنى أن تؤدي إلى عمل، وأنا أعتبر كلّ كلمة لا تحمل مثل هذه الدعوة إلى العمل مكتوبة عبثاً؛ إنّه أمر جيد على أية حال أنْ نبيّن مرة أخرى الخالد في مقاربات شوبنهاور، خاصة بالنسبة لمعاصرينا، الذين يحسبون بسذاجتهم أنَّ كلّ شيء تغيّر نحو الافضل في ألمانيا، منذ أن طرحت اتهاماته الجادة. لكن ولا حتى في هذه النقطة، بغض النظر عن صغر حجمها، أنتهى عمله

وإذا نظرنا عن كثب فسيظهر أنَّ "الحرية"، التي تبارك بها الدولة بعض الأفراد اليوم، كما ذكرت، من أجل خير الفلسفة، هي ليست حرية على الإطلاق بل وظيفة للحصول على لقمة العيش. بناءً على ذلك يهدف دعم الفلسفة فحسب إلى أنَّ الدولة تمكّن عدداً من الأفراد *العيش* من فلسفتهم من خلال جعلها وسائل رزق: لم تدفع

الدولة لحكماء اليونان القدماء، بل كانوا يكافئون على الاغلب، مثلما كُوفيء زينون بتاج ذهبي ونصب تذكاري في كيراميكوس[1]. لا يمكنني القول بوجه عام إلى أيّ مدى يخدم الإنسان الحقيقة من خلال عرض طريقة عيشه عليها؛ لأنَّ الأمر هنا يعتمد على نوعية الفرد الذي يعرضها. يمكنني تصور درجة من الفخر والثقة بالنفس التي تجعل انسانا يقول لاخوته البشر: إعتنوا بي؛ لأنَّ لدي شيئاً اهتم به، أعني، أن أعتني بكم. ليس من المستغرب أن نلقى هذا الموقف عند افلاطون أو سقراط؛ ولهذا بالذات استطاع هذان الفيلسوفان تحمّل أن يكونا فلاسفةَ جامعةٍ، حتى إنَّ افلاطون كان لفترة فيلسوفَ بلاط أيضاً دون أن يحطّ من قدر الفلسفة. لكن حتى كَانت كان، كما تعودنا نحن العلماء أن نكون، مراعياً، مذعناً، وفي سلوكه تجاه الدولة، بلا عظمة: إذا تعرضت فلسفة الجامعة إلى الاتهام فإنه مهما يكن من أمر لم يسوّغه. لكن إذا وجدت هناك شخصيات قادرة على تسويغه- كشوبنهاور وافلاطون- فأني أخشى شيئاً واحداً فقط: إنهم لن يحصلوا أبداً على فرصة لعمل ذلك، طالما أن لا دولة تجرؤ قط تفضيل بشر كهؤلاء وتعيّنهم في مناصب جامعية. لماذا ذلك؟ لأنَّ كل الدول تخشاهم وتفضل دائما فقط الفلاسفة الذين لا تخافهم. إذ يحدث أن تكون الدولة خائفة من فلسفة كهذه، وحينما يكون هذا هو الوضع فإنها تبذل كل ما في وسعها لجمع فلاسفة أكثر حولها، فيبدو الأمر كما لو أنَّ الفلسفة تقف إلى جانبها- لأنَّها تملك إلى جانبها هؤلاء البشرالذين يحملون اسم الفيلسوف لكنهم مع ذلك

---

(1) منطقة في اثينا القديمة تقع في الشمال الغربي إلى الاكروبوليوس الشهير.

لا يوحون بصورة خاصة بالخوف. إذا ظهر مع ذلك انسان يصدر اشارة لاستخدام مبضع الحقيقة لمهاجمة كل الأشياء، بما فيها الدولة، فسيكون مبرراً إذن للدولة، لأنها تريد الحفاظ على وجودها، طرد مثل هذا الإنسان ومعاملته كعدو: تماماً مثلما تطرد منها ديناً يريد أن يضع نفسه أعلى من الدولة وأن يكون حاكمها وتعامله كعدو. إذا كان المرء يقبل بناءً على ذلك أن يكون فيلسوفاً في خدمة الدولة، فعليه أيضاً أن يقبل، أنَّ الدولة تنتظر، أنَّه لا يتبع الحقيقة بإصرار. إنَّ على المرء على الأقل الإقرار، طالما أنَّه متلق للعطايا والوظائف، أنَّ هناك شيئاً يحتل منزلة أعلى من الحقيقة، أي الدولة. وليس الدولة فحسب، بل كل شيء ترغبه الدولة: مثلاً، نوع معين للدين، لنظام اجتماعي، أو منظومة عسكرية- على كل تلك الأشياء مكتوب *لا تلمسني*(1). اترى هل ادرك فيلسوف جامعة على الاطلاق حجم واجباته ونواقصها؟ لا أعرف؛ إذا فعل احد هذا وبقي مع ذلك موظفا في الدولة، فانه كان في كل الاحوال صديقا سيئا للحقيقة؛ وإذا لم يقم بذلك ابدا- فانه حسب رأيي هو ليس صديقا للحقيقة ايضا.

هذا هو اكثر الاعتراضات السائدة: لكن بالنسبة للناس كما هم اليوم، مع ذلك، فانه بالطبع اضعف الاعتراضات وهو اعتراض لا يكترثون له كثيرا. سيكتفي اغلبهم بان يهز كتفه ويقول: "كما لو أنَّ شيئا عظيما ونقيا استطاع في وقت ما الاقامة باستمرار على هذه الارض دون تقديم تنازلات إلى الآنحطاط الإنساني! ولهذا فانتم تفضلون أن تلاحق الدولة الفيلسوف بدلا من أن تكافئه وتجعله في

(1) باللاتينية في الاصل ***noli me tangere***

خدمتها؟" بدون أن أجيب مسبقا على هذا السؤال الآن، أريد فقط أن أضيف، أنّ تنازلات الفلسفة إلى الدولة قد تجاوزت حـدها مسـبقا. أولا، تختار الدولة خدمها الفلسفيين، وتختار العدد الذي يتجاوب مـع حاجتها؛ وهي تجعله على هذا النحو يبدو كما لو انها قـادرة علـى التمييز بين الفلاسفة الجيدين والسيئين، وهي تفترض علاوة على ذلك، انه سيكون هناك على الدوام عدد كاف من الفلاسفة الجيدين حـتى تشغل كلّ كراسي الاستاذية بهم. الدولة الآن هي السلطة، ليس فقـط فيما يتعلق بنوعية الفلاسفة، بل وايضا حين يتعلق الامر بعدد الفلاسفة الجيدين الذين تحتاجهم. ثانيا: انها تجبر أولئك الذين اختارتهم الاقامة في مكان محدد، ويعيشوا بين بشر محددين، ويمارسوا عملا محددا؛ وعليهم أن يدرسوا كلّ شاب اكاديمي يرغب هذا يوميا وعند وقـت محـدد ثابت. السؤال هو: هل يمكن حقا أن يتعهد فيلسوف ذو ضمير حـيّ أن يكون لديه ما يدرّسه كل يوم؟ وأن يدرّسه إلى أيّ شخص حريص على الاصغاء؟ ألا يكون مجبراً على أن يعطي انطباعاً كما لو أنه يعرف أكثر مما يعرف؟ ألا يكون مجبرا للتحدث أمام جمهور من الغرباء عـن أشياء، التي يتمكن التحدث عنها باطمئنان حقاً وسط أقرب اصـدقائه فقط؟ وإجمالاً: ألا يتنازل عن حريته الأنبل بأن يمتثل إلى عبقريته مـتى وحيثما نادته؟- لأنه ألزم نفسه التفكير علناً حول موضوعات معـدّة سلفاً وفي أوقات محددة. وأن يقوم علاوة على ذلك أمام الشباب! ألا يكون محكوماً مسبقاً على فكر من هذا القبيل باللارجوليـة والعقـم؟ ماذا لو انه قال ذات يوم لنفسه: لا يمكنني اليوم أن أفكر بأيّ شـيء، ليس على أقل تقدير بشيء ذي قيمة - ومع ذلك سـيكون عليـه أن يقدم نفسه ويتظاهر كما لو أنه يفكر!

لكن، سيعترض احد، من المفترض أن لا يكون مفكراً على الاطلاق، بل على الأغلب شخصاً متعلماً عارضاً لما فكر به مفكرون سابقون، وهؤلاء سيكون قادراً على الدوام أن يقول شيئاً عنهم، ما لم يعرفه طلابه مسبقاً.- هنا يكمن التنازل الثالث والخطير جداً الذي تقدمه الفلسفة إلى الدولة، اذ إنها تلزم نفسها أولاً وقبل كل شيء بأن تظهر كعلم. خصوصاً كمعرفة لتاريخ الفلسفة؛ لكن بالنسبة للعبقري، الذي ينظر إلى الأشياء كما يفعل الشاعر بعينين عاشقتين ونقيتين، دون أن يتمكن الغوص بعمق كاف فيها، فإنه أمر مقرف وغير ملائم أن يفتش في معاني خاطئة وغريبة لا حصر لها. لم يكن التاريخ العلمي للماضي أبداً شأناً بالنسبة للفيلسوف الحقيقي، لا في الهند ولا في اليونان؛ وإذا أقحم أستاذ فلسفة نفسه بمثل هذا العمل فإن عليه أن يتحمل في أحسن الأحوال أن يقال عنه: إنه عالِم كلاسيكي، لغوي، قديم، مؤرخ، مؤرخ – لكنه ليس أبداً فيلسوفاً. قلت، "في أحسن الأحوال": لأنَّ أغلب الاعمال العلمية المنجزة من قبل فلاسفة الجامعة تمنح الباحث اللغوي إحساساً أنها انجزت بصورة سيئة، بدون صرامة علمية، وفي الغالب مملة بصورة بغيضة. مَن هو قادر، مثلا، على ينقي تأريخ الفلاسفة اليونانيين من البخار العفن المخدر، الذي غطاها من قبل اعمال ريتر، برانديز، وزيلر[1]، العلمية، التي هي رغم ذلك ليست علمية ولسوء الحظ مملة كلياً؟ من جانبي أفضِّل قراءة لاريتوس دايجوين[2] على زيلر؛ لأنَّ الأول يستنشق على الأقل روح

---

(1) اساتذة فلسفة الماني من القرن التاسع عشر.

(2) فيلسوف يوناني من القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، الذي وصف تاريخ الفلسفة القديمة في عشرة اجزاء.

الفلاسفة القدماء، بينما لا يستنشق الاخير تلك أو اية روح اخرى. وأخيراً ما هي بحق السماء، علاقة شبابنا بتاريخ الفلسفة؟ هل المفترض أن يثنيهم تشوش الآراء عن أن يكون لهم آراء خاصة بهم؟ هل من المفروض أن يتعلموا كيف يشتركون في التهليل إلى ما وصلنا إليه أنفسنا بشكل رائع؟ هل من المفروض حتى أن يتعلموا كراهية الفلسفة أو احتقارها؟ قد يفكر المرء كذلك غالبا، حينما يعرف كيف ان على الطلاب تعذيب أنفسهم بسبب امتحاناتهم الفلسفية كما لو أنهم يحشون ادمغتهم المسكينة باكثرالأفكار حماقة ومواربة للروح الإنسانية- مع اكبر الأفكار العظيمة والصعبة. لم يدرّس النقد الوحيد الممكن للفلسفة والذي يبرهن بنفس الوقت شيئا ما، أي الذي يحاول رؤية فيما إذا كان الإنسان يستطيع أن يعيش طبقا لها، في الجامعات ابدا: كل ما تم تدريسه دائما هو نقد لكلمات بواسطة كلمات أخرى. والآن تصور رأس شاب بلا خبرة حياتية كافية، يتم خزن خمسين منظومة بشكل كلمات وخمسين ناقداً لنفس المنظومات فيه- فأيّ قفر، وأية عودة إلى البربربة، أية سخرية بتعليم الفلسفة! لكن في الحقيقة لم يدّعوا، أنَّ الامر يتعلق بالتعليم الفلسفي، بل عن تمرين في اجتياز الامتحانات الفلسفية: والنجاح في هذا السياق يكمن كما هو معروف في أنَّ الطالب المُمتحن، ياللحسرة، الممتحن بقسوة كبيرة جداًا- يعترف بتنهيدة عميقة: "شكراً لله أنني لست فيلسوفاً، بل مسيحياً ومواطناً في بلادي!"

ماذا لو أنَّ تنهيدة الفرج هذه كانت هي هدف الدولة الحقيقي وكان "تدريس الفلسفة" مجرد وسائل ردع عن الفلسفة؟ على المرء أن يطرح هذا السؤال على نفسه- إذا كان الأمر حقاً كذلك، فليس

هناك على أية حال سوى شيء واحد ينبغي الخوف منه: أن يتمكن الشباب في نهاية المطاف في أن يدركوا لأي هدف يتم في الواقع إساءة استخدام الفلسفة. هل الهدف الأعلى، انتاج العبقري الفلسفي، هو محض ادّعاء؟ ربما الهدف بالضبط هو إعاقة هذه الولادة؟ وهكذا فقد تم قلب المعنى إلى نقيضه؟ فإذا حدث هذا- الويل لكل تعقيد الدولة وسياسة الاستاذية!-

هل أصبح هذا الأمر معروفاً مسبقاً؟ لا أعرف، لكنني أعرف أنَّ فلسفة الجامعة أصبحت في كل الأحوال هدفاً للشك والإزدراء العام. وهذا يرتبط جزئياً بحقيقة أنَّ جيلاً ضعيفاً يتحكم في الوقت الراهن على قاعة المحاضرات؛ لو كان على شوبنهاور أن يكتب أطروحته حول فلسفة الجامعة الآن، فانه لن يكون بحاجة إلى هراوة بل سينتصر بقصبة. سيضرب بلا رحمة ورثةَ وذرّيةَ أولئك المفكرين المزيفين ذوي العقول المشوهة؛ إنهم يذكروننا كثيراً بالأطفال الرّضع والأقزام بحيث يشرع المرء في التفكير بالمثل الهندي: "يولد البشر طبقاً لأفعالهم أغبياء، بكماً، صماً، مشوهين." يستحق الآباء أمثال هذه الذرية حسب "أعمالهم". ولهذا فإن الشباب الأكاديمي سيكون قادراً بلا شك قريباً جداً على تدبير أمره بدون الفلسفة التي تدرّس في جامعاتهم، ويكون الرجال غير الأكاديميين قادرين بالفعل حالياً على تدبير أمورهم بدونها. على المرء أن يتذكر أيام دراسته فحسب، ففيما يخصني، مثلاً، فقد كان الفلاسفة الأكاديميون بشراً غير مكترث بهم تماماً: اعتبرتهم كبشر جمّعوا بعض نتائج العلوم الآخرى لانفسهم، وقرأوا الصحف في لحظات فراغهم وذهبوا إلى الحفلات الموسيقية، بينما عاملهم زملاؤهم الاكاديميون باحتقار مقنع بالأدب. كانوا مشهورين بأن يعرفوا القليل فقط ولا ينقصهم أبداً التعبير

المبهم الذي يخفون به هذا النقص في المعرفة. لهذا فضّلوا الإقامة في أماكن مظلمة حيث لا يصبر البشر الذين يمتلكون بصيرة واضحة على البقاء فيها طويلاً. حاجج أحدهم ضد العلوم الطبيعية قائلاً: لا يمكن لأحد منها أن تقدم توضيحاً كاملاً عن نشوء المادة[1] فما شأني بها؟ آخر قال عن التاريخ: "بالنسبة للذي يملك أفكاراً ليس لديه جديد ليقوله" - باختصار، كانوا يحاججون دائماً على أنّ الأمر أكثر فلسفية أن لا تعرف شيئاً من أن تتعلم شيئاً. لكن عندما باشروا أخيرا في التعليم، فقد كان دافعهم الخفي لعمل ذلك هو أن يتهربوا من العلوم ويقيموا مجالاً معتماً في واحدة أو أخرى من فجواها. ويمكن القول إهم كانوا متقدمين على العلم فقط بنفس الطريقة التي يتقدم فيها الأيل أمام الصيادين الذين يلاحقونه. في الفترة الأخيرة كانوا مكتفين بالادعاء بأهم في الحقيقة مجرد مراسلي[2] العلم وحرس حدوده؛ ويستخدمون لهذا الهدف تعاليم كانت بخاصة، التي يعملون بحماس لجعلها شكوكية فارغة، حيث ستكون منسية من الجميع قريباً. تمكن أحدهم هنا وهناك فقط أن يبلغ مرتبة ميتافيزيقية صغيرة، التي تقود دائماً إلى الغثيان، الصداع ونزيف الآنف. بعد رحلات فاشلة عديدة وسط الضباب والغيوم، وبعد ظهور أحد المريدين الفظين والعنيدين من العلوم الحقيقية مرة بعد أخرى، وجرّهم من ضفائرهم وطرحهم ارضا، تُبدي ملامح وجوههم كالعادة علامات معروفة على كوهم أهينوا بسبب القبض عليهم وهم يكذبون. لقد فقدوا تماماً ثقتهم، لهذا لم يعش أحد منهم للحظة واحدة من أجل فلسفته. اعتقد بعضهم مرة، بأهم قادرون على

(1) يقصد نيتشه هنا قضية نشوء الكون واصل المادة.
(2) المراسل أو المرسال هو الجندي الذي يقوم بخدمة ضباطه.

اختراع أديان جديدة أو استبدال القديمة بأنظمتهم الفلسفية؛ لم يعـودوا شجعاناً إلى هذه الدرجة، أهم بشر ورعون غالباً، متحفظون، يعـبرون عن أنفسهم بصورة غامضة، بلا شجاعة مثلما لـوكريتس، لكنـهم حانقون على هذا العبء الملقى على كاهل الإنسان. لم يعد أحد يـتعلم منهم كيفية التفكير منطقيا وتخلوا، انطلاقاً من تقييم واقعي لقـدراقم، المناظرات الرسمية التي اعتادوا على ممارستها. لا شك أنّ العلوم المنفـردة مطلوبة الآن بمنطقية أكبر، بحذر، بتواضع وابتكار، باختصار بفلسـفية أكبر من الوضع عند ما يسمى بالفلاسفة: وعلى هذا فان المرء سـيعطي بصورة عامة الإنكليزي النزيه بيجهوت الحق، حين يقول عن بنّائي نظام عصرنا المعاصرين: "مَن هو ليس متأكدا على وجه التقريب مقدماً، بأن مقارباهم تحتوي على مزيج غريب من الحقيقة والخطأ، ولذلك لن يكون نافعاً لصرف الحياة في التأمل حول نتائجها؟ ربما يجتذب الكامل والمنتهي من هذه الأنظمة الشباب ويترك انطباعاً قوياً على الذين تعوزهم الخبرة، لكن الناس المتعلمين لا يسمحون لها أن تسخر منهم. إهم مسـتعدون دائماً لاستلام الاقتراحات والتلميحات، ويرحبون بأصغر حقيقة - لكن كتاباً كبيراً ذا فلسفة استدلالية يثير غضبهم. جمّعت النمـاذج المتفائلـة بلهفةٍ مبادئ تجريدية غير قابلة للبرهان عديدة وقاموا بشرحها بعنايـة في كتب ونظريات يمكنها أن تفسر كلّ العَالم. لكن العَالم غير معني كلياً بكل هذه التجريدات، وهو ليس بالأمر الغريب؛ لأنّ بعضـها ينـاقض الآخر."[1] إذا كان الفلاسفة السابقون، وخاصة في ألمانيا، تعودوا علـى الاستغراق في مثل هذه التأملات العميقة، بحيث كانوا في خطر دائم بأن

---

(1) Quted from Bagehot's *Physis and politics*. قام نيتشه باعادة صياغة نظام الكلمات في المقطع الاصلي دون ان يغير ذلك من المعنى.

يصدموا رؤوسهم في عارضة السطح، فإن لديهم الآن، كما يخبرنا سويفت[1] عن اللابوتيين، فوجاً كاملاً من حاملي المضارب حولهم، الذين يوجهون لهم في الفرصة المناسبة ضربة خفيفة على العيون أو في مكان آخر. وحين تصبح الضربات بين الحين والآخر قوية، بحيث ينسى هؤلاء (المفكرون) المبتهجون جداً أحياناً أنفسهم بسهولة ويعيدون الضربة، لكنهم لا يصيبون الهدف أبداً - ألا ترى العارضة، أيّها الرأس الغافي! يقول حامل المضرب ذلك- وعادة يرى الفلاسفة العوارض ويشعرون بالارتياح الكبير. حاملو المضارب هم التاريخ والعلوم الطبيعية؛ لقد جعلوا الحلم الألماني تدريجياً - وعمل الفكر، الذي تم خلطه بالفلسفة منذ فترة طويلة، مرعباً جداً، بحيث إنّ هؤلاء الأشخاص المفكرين يفضلون التخلي عن المحاولة للعثور بأنفسهم على الطريق؛ لكن إذا حدث عن طريق الخطأ ووقعوا بين أيدي حاملي المضارب أو يحاولون ربطهم بأحزمة[2] يمكنهم قيادهم بواسطتها، فإن حاملي المضارب يشرعون الضرب بقوة قدر الإمكان - كما لو أنّهم يريدون القول: "إنّ أحد الأشخاص المفكرين يريد تشويه سمعة العلوم الطبيعية أو علوم التاريخ، إنها الطّامة الكبرى! أبعدوه!" من ثم يتقهقرون ثانية إلى الخلف، إلى عدم ثقتهم وحيرتهم: إنهم يريدون حقاً الحصول على قليل

(1) اشارة إلى عمل الروائي الايرلندي جوناثان سويفت رحلات غويلفر، الجزء الثالث الذي يتحدث فيه عن رحلة إلى جزيرة لابوتا حيث يتصور فيها جزيرة طائرة يرتدي فيها سكانها ملابس غريبة ذات اجنحة صغيرة تشبه المضارب يستخدمونها لضرب الاخرين خلال المحادثة لكي يحافظوا على تركيزهم.

(2) يتحدث نيتشه هنا عن الرابط أو الحزام الذي يشبه الحزام الذي يستخدمونه للطفل لكي يساعدونه على المشي.

من علم الطبيعة ضمن ممتلكاتهم، مثلاً شيئاً من السايكولوجيا الإمبريقية مثل الهرباتيين[1] وبعضاً من التأريخ أيضاً، - فيمكنهم في العلن على الأقل، التظاهر كما لو أنهم يشتغلون بشيء علمي، مع أنهم يتمنون في الخفاء كل الفلسفة والعلم إلى الجحيم.

لكن حتى لو سلمنا أنَّ هذا الحشد من الفلاسفة السيئين مدعاة إلى الاستهزاء- ومن لا يريد أن يقرّ بهذا؟- إلى أيّ حد هم *مؤذون أيضاً*؟ الجواب باختصار هو أنهم مؤذون بنفس القدر الذي يجعل *الفلسفة مدعاة للاستهزاء*. طالما استمر هذا الجيش من المفكرين المزيفين المعترف بهم رسمياً في الوجود، فستصبح كل فلسفة عديمة الفعالية أو على الأقل يعاق تطورها، تماماً بسبب لعنة السخرية، التي جلبها ممثلو هذه الفلسفة لأنفسهم، لكن التي أصابت الفلسفة ذاتها أيضاً. ولهذا السبب أقول إنَّه مطلب إلى الثقافة، أنَّ تجرد الفلسفة من أي نوع من الاعتراف الرسمي أو الأكاديمي، وأن تكون الدولة والأكاديمية معفية كلياً من المهمة التي لا حل لها المتمثلة في التمييز بين الفلسفة الحقيقية والمزيفة. لندع الفلاسفة يكبرون دون تعهد بالعناية، نحرمهم من كل أمل بمناصب أو مراكز في الوظائف البرجوازية، ونكف عن إغرائهم بالمكافآت، وأريد أن أذهب أبعد من ذلك لأقول: اضطهدوهم، وانظروا اليهم بلا رحمة - فسترون أشياء مدهشة! سيهربون في كل الاتجاهات الممكنة ويبحثون عن ملجأ حيثما يستطيعون العثور عليه، هؤلاء الفلاسفة المتبجحون المساكين؛ سيصبح أحدهم قسّاً، آخر معلماً، الثالث سيتسلل إلى وظيفة محرر في

(1) اتباع نظريات عالم التربية، النفس، والفيلسوف الالماني يوهان فردريش هرباتيس 1841-1776.

صحيفة، والرابع سيكتب كتباً تعليمية إلى المدارس العالية للبنات، سيحرث أكثرهم ذكاءً حقولاً، وسيسعى أكثرهم غروراً إلى البلاط. فجأة سيكون العش فارغاً، فالجميع طاروا: لأنَّ من السهل التخلص من الفلاسفة الرديئين، على المرء أن يكفّ فحسب عن مكافأتهم. وهذا في كل الأحوال أكثر صواباً من مناصرة الدولة علناً لأي فلسفة، *بغض النظر عمّا تكون*.

لم تكن الدولة أبداً مهتمة بالحقيقة ذاتها، لكن بالحقيقة النافعة لها فقط، أو بصورة أدق: إنها تهتم بكل شيء ينفعها، فيما إذا كانت حقيقة، أنصاف حقائق أو أخطاء. لهذا يمكن أن يكون التحالف بين الدولة والفلسفة ذا معنى فقط، حين تتعهد الفلسفة أن تكون مفيدة للدولة، أي، أن تضع رفاهية الدولة أعلى من الحقيقة. سيكون بالتأكيد أمراً ممتازاً للدولة، لو تكون الحقيقة في خدمتها أيضاً؛ لكن الدولة تعرف جيداً، أنَّ هذا يتعارض مع جوهر الحقيقة، أن تقوم بخدمة أو تتلقى نقوداً. وبالتالي فإن ما تمتلكه الدولة الآن هو الحقيقة المزيفة فقط، مخلوق مقنّع لا يمكنه للأسف أن يقدم ما تتمناه الدولة بحرارة جداً من الحقيقة الصادقة: أن تكون صالحة – ومقدسة. إذا اراد أمير من القرون الوسطى أن يكون متوجاً من قبل البابا، لكن البابا رفض ذلك، فإنه يعيّن بابا معارضاً ينجز له هذه المهمة. يمكن أن يحدث هذا الأمر إلى حد ما آنذاك، لكن لا يمكن أن يحدث أن تعيّن دولة معاصرة معارضاً للفلسفة لشرعّنتها؛ لأنَّ الفلسفة كانت دائماً مضادة للدولة، بل وهي اليوم أكثر من السابق. أعتقد بكل جدية أن من مصلحة الدولة اكثر أن لا يكون لها شأن إطلاقاً مع الفلسفة، وأن تدعها اطول وقت ممكن حرّة. حين لا تعود الفلسفة

غير مبالية، فإنها تصبح خطرة وعدائية، فتتمكن الدولة ملاحقتها.- طالما أنَّ الدولة ليس لديها مصلحة في الجامعة أكثر من رؤيتها تربي مواطنين مخلصين ونافعين للدولة، فعليها أن تحذر من وضع هذه المنفعة والإخلاص في خطر من خلال مطالبة هؤلاء الشباب الذهاب إلى الامتحان في الفلسفة: حين نأخذ بنظر الاعتبار كم عدد الرؤوس البليدة وغير الكفوءة موجود، فيمكن أن تكون الوسيلة الصحيحة لاخافتهم من دراسة مادتهم، بحيث يجعلم المرء إلى اشباح امتحان.؛ لكن هذا المكسب لن يعوض عن الأذى الذي يولده نفس العمل الاجباري عند الشباب المندفع والقلق؛ إنهم يتعرفون على الكتب الممنوعة، يبدأون بانتقاد معلميهم ويعون الهدف من فلسفة الجامعة وامتحاناتها- ناهيك عن الاعتراضات التي سيثيرها اللاهوتيون الشباب، والتي سيكون نتيجتها، أنهم سيتلاشون كالوعول في تيرول.[1]

- أفهمُ جيداً الاعتراضات التي يمكن أن تطرحها الدولة ضد كامل طريقة النظر إلى الأمور ما دامت نبتات الهيجلية الخُضر الجميلة كانت تورق في كل الحقول: لكن بعد أن دمر البرد هذا الحصاد، وانهارت كل الآمال المعقودة عليه، وكل المخازن فارغة- لم يعد المرء يفضل طرح المزيد من الاعتراضات، بل الإعراض تماماً عن الفلسفة. فالمرء يمتلك سلطة الآن: سابقاً، في زمن هيجل أراد المرء الاستحواذ عليها- وهو فرق واسع. لم تعد الدولة بحاجة إلى اعتراف الفلسفة، بهذا أصبحت الفلسفة زائدة عن اللزوم بالنسبة للدولة. عندما لا تعود الدولة تدفع إلى اساتذتها أو، كما أتوقع في المستقبل القريب، تقوم

(1) منطقة تقع في النمسا.

بذلك ظاهرياً فقط وليس في الواقع، فسيكون من صالح الدولة - لكن ما هو أكثر أهمية، اعتقد، أنّ الجامعات أيضاً سترى مصلحتها في ذلك. افترض أنّ العلوم الحقيقية ستعتبره كفائدة، لو تم تحريرها الشراكة مع أنصاف- وأرباع العلوم. تتمتع الجامعات باحترام قليل جداً، وعلاوة على ذلك، سيكون عليها مبدئياً أن تطلب إقصاء الفروع العلوم التي يكنُّ لها الأكاديميون ذاتهم احتراماً قليلاً. لأنّ لدى غير الأكاديميين سبباً وجيهاً كي يستهينوا عموماً بالجامعات؛ فهم يعيبون عليها كونها جبانة، وأن الصغار يخافون الكبار، والكبار يخافون الرأي العام؛ وأنهم لم يكونوا أبداً في الطليعة حين يتعلق الأمر بشؤون الثقافة العالية، لكنهم يعرجون ببطء متأخرين في الخلف؛ وأنهم يكفون عن الحفاظ على العلوم المحترمة في مسارها الحقيقي. الدراسات اللغوية مثلاً مطلوبة بحماس أكبر من السابق، لكن لا أحد يعتبرها ضرورية لتعليم نفسه في الكتابة والمحادثة الصحيحة. يفتح العصر الهندي القديم أبوابه، لكن علاقة اولئك الذين يدرسونه بأعمال الهنود غير المتاحة، وبفلاسفتهم، قليلاً ما تختلف عن علاقة حيوان بالقيثارة: رغم أن شوبنهاور أعتبر الاطلاع على الفلسفة الهندية كونه أكبر إنجاز يناله عصرنا مقارنة بالعصور الأخرى. أصبحت العصور الكلاسيكية القديمة اعتباطية وكفت عن إنتاج تأثير نموذجي وكلاسيكي، كما يتبين ذلك من خلال طلابها الذين هم ليسوا قطعاً بشراً نموذجيين. أين ذهبت روح فردريك اوغوست وولف[1]، الذي يمكن لفرانز باسو أن يقول عنه إنه يبرز كوطني حقيقي، وروح

---

(1) عاش في الفترة (1759–1824) باحث لغوي الماني شهير ومؤرخ للتأريخ القديم.

انسانية حقيقية التي كانت قادرة على أن تشعل وتحرق جزءاً من العالم- أين هي هذه الروح؟ بالمقابل تتسرب أرواح الصحفيين أكثر وأكثر إلى الجامعات، وغالباً باسم الفلسفة؛ محاضرة ملساء ومنمقة، فاوست وناثان الحكيم[1] على الشفاه، اللغة ووجهات النظر من مجلات عصرنا الأدبية المقرفة، وفي المدة الأخيرة حتى ثرثرة أيضاً عن موسيقانا الألمانية المقدسة، والمطالبة بمنصب الأستاذية في أدب غوته وشيللر- كل هذه العلامات تبين، أنَّ روح الجامعة بدأت تشوّش نفسها بروح *العصر*. ولهذا تبدو من الاهمية بمكان لي، أن تنشأ خارج الجامعة محكمة عليا، التي تراقب وتقاضي هذه المؤسسات فيما يتعلق بالتعليم الذي تقدمه؛ وحالما يتم فصل الفلسفة عن الجامعات وتنقي نفسها على إثر ذلك من كل الاعتبارات والتحيزات المعيبة، فإنها ستصبح أوتوماتيكياً مثل هذه المحكمة: ستعرف كيف تؤدي واجبها باستقلالية عن الدولة، بلا رواتب أو القاب، ومتحررة من *روح العصر* ومن الخوف منه- باختصار، كما عاش شوبنهاور، كقاض لما يسمى الثقافة، التي كانت تحيط به. وبهذه الطريقة يمكن أن يكون الفيلسوف مفيداً للجامعة، إذا هو لم ينصهر مع الجامعة، بل بدلاً عن ذلك يراقبها من مسافة معتبرة، بحيث يمكنه تقييمها.

لكن في المحصلة- ماذا يعني لنا وجود الدولة وتشجيع الجامعات، حين يكون وجود الفلسفة هو قبل شيء الأهم على الارض! أو - ولكي لا يكون هناك أيّ شك على الاطلاق بخصوص ما أعني- حين يكون ظهور فيلسوف في العالم أكثر أهمية بصورة لا توصف من استمرار الدولة والجامعة. يمكن تعزيز منزلة الفلسفة

(1) فوست غوتة ومسرحية لسينغ "ناثان الحكيم".

بالقدر الذي تزداد فيها عبودية العبد للرأي العام والخطر على الحرية؛ لقد كانت في عظمتها خلال الهزات الارضية التي صاحبت الجمهورية الرومانية الزائلة وخلال عصر القيصر، عندما أصبح اسمها واسم التاريخ *أسماء لا تسرّ الامراء*.[1] قدم بروتوس الدليل على منزلته أكثر مما فعل أفلاطون؛ إنه ينتمي إلى ازمنة كفت فيها الأخلاق عن أن تكون مبتذلة. لا تتمتع الفلسفة حالياً بمنزلة قيّمة، وعلى المرء أن يسأل، لماذا لا يوجد حالياً قائد عظيم أو رجل دولة، يعلن إيمانه بها- الجواب ببساطة هو أنه الزمن الذي بحثوا فيه عنها لم يسمح لهم سوى اللقاء بشبح باهت حمل أسم الفلسفة، حكمة قاعة المحاضرات العلمية واحتراس قاعة المحاضرات، باختصار؛ لأنَّ الفلسفة في سنواته المبكرة غدت اليه أمراً مضحكاً. مع أنه كان ينبغي أن يكون شيئاً مرعباً؛ وتوجب على هؤلاء الأشخاص الذين تم استدعاؤهم للبحث عن السلطة، أن يعرفوا أيّ مصدر للبطولة ينبع منه. لنترك أمريكياً يخبرهم ماذا يعني مفكر عظيم وصل إلى هذه الأرض كمركز جديد لقوى جبارة. "إحذر"، يقول إيمرسون، "عندما يترك الله العظيم مفكراً طليقاً على هذا الكوكب، فإن كل شيء في خطر. إنه كحريق هائل عندما يندلع في مدينة كبيرة، ولا أحد يعرف ما هو في مأمن، أو أين ستنتهي الأمور. كل الحقائق العلمية يمكن أن تنقلب رأساً على عقب غداً، لن تبقى هناك سمعة أدبية دون تغيير، حتى ما تسمى بالأسماء الخالدة المشهورة، كل شيء عزيز على البشر حالياً، هو كذلك فقط بسبب الأفكار التي توطنت في آفاقهم العقلية، والتي تحدد نظام الأشياء الراهن، بنفس الطريقة التي تحمل الشجرة تفاحاً. مرحلة

(1) *ingrata principibus nomina* في الاصل باللاتنينة.

جديدة من الثقافة ستثوّر كل نظام المساعي البشرية." [1] حسناً، لو كان أمثال هؤلاء المفكرين خطرين، فمن الواضح بنفس الوقت لماذا مفكرونا الاكاديميون غير خطرين؛ لأنَّ أفكارهم تنمو بسلام في سياق التقاليد، كما تحمل شجرة تفاحاً: إنهم لا يثيرون الذعر، إنهم لا يقلبون أي شيء؛ يمكن أن يقال نفس الشيء عن جهودهم، كما اعترض دايوجين في عصره ضد فيلسوف تم امتداحه؛ "ما الذي فعله على الإطلاق، طالما أنه تفلسف لفترة طويلة و لم يزعج أيّ شخص حتى الآن؟" في الحقيقة، ينبغي أن تكون عبارة على شاهدة قبر فلسفة الجامعة: "إنها لم تزعج أحداً" لكن هذا هو في الواقع ثناء لامرأة عجوز أكثر منه لربّة الحقيقة، وليس هذا مدهشاً أن أولئك الذين يعرفون الإلهة مجرد امرأة عجوز، هم أنفسهم رجوليون قليلاً، ولهذا فمن الطبيعي أن لا يبدي رجال السلطة اعتباراً لهم.

لكن إذا كان هذا هو الوضع في عصرنا، فقد تم إذن تمريغ شرف الفلسفة في الوحل: حتى إنها أصبحت شيئاً مضحكاً وقضية لا أهمية لها: لهذا فإن من واجب كلّ أصدقائها الحقيقيين أن يناهضوا هذا الخطأ ويبينوا على الأقل أنَّ خدم الفلسفة المزيفين وممثليها التافهين فقط هم مَسخَرة أو غير ذي شأن. أو أن يبيّنوا عبر العمل حتى أفضل من هذا، أنَّ حبَّ الحقيقة أمر مخيف وجبّار.

لقد بينّ شوبنهاور هذين الجانبين- وسيصبحان أكثر وضوحاً في كل يوم يمر عليهما.

---

(1) الاستشهاد من مقالة الشاعر إيمرسون المعنونة "دوائر".

فردريك نيتشه:

شوبنهاور مربياً

هذا الكتاب:

هو نص من بين أربعة نصوص كتبها الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه بين الأعوام 1873-1876.

تنبع أهميـــة الكتاب من أنه يمنح القارئ فرصـــة جديدة لتقصـــي العديد من الأفكار الرئيســـية التي اشتغل عليها نيتشـــه فيما بعد في كتبه ودراســـاته اللاحقـــة. رغم أن الكتاب هو عن شوبنهاور إلا أنّه في حقيقته يعرض لأفكار وتصـــورات نيتشـــه ذاته، كما كتب لاحقاً فـــي رسالة إلى أحد أصدقائه، حيث يمكـــن تتبع ذلك في إشارته إلى دور الفيلسوف وأهميته في المجتمع والمعاناة التي يواجهها من محيطه بسبب آرائه النقدية وتصوراته المضادة للمعتاد والمتداول من الأفكار والعادات والسلوك، ثم تأكيده المتكرر على أهمية إفساح فرصة أكبر أمام الفيلسوف والعالِم وأن لا يتحوّلا إلى أداوت في خدمـــة الدولة، بل ويطالب بقوة إلى حيادية نشاطاتهما والمؤسسات التعليمية والكف عن أن تكون في خدمة أهداف الدولة ومصالح الرأسماليين.

مع ذلك فـــإنّ تأثير شوبنهاور وأفـــكاره وأطروحاته تبدو بلا شك واضحة على نيتشه، رغم أنه سعى لاحقاً الإيحاء مراراً بالتحرر مـــن أسر تأثير شوبنهاور عليه. لاقى كتاب «شوبنهاور مربيا» في السنـــوات الاخيرة اهتماما كبيرا من قبل الوسط العلمي والقرّاء على السواء، واحتل مكانة مهمـــة في فهم تطور نيتشه الفكري، ولهذا نرى أن ترجمته الـــى العربية قد يساعد على إلقاء ضوء جديد على فكره، واغناء للمكتبة العربية وخدمة للثقافة عموما.

ISBN: 978-614-02-1363-0
9 786140 213630

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

دار الأمان
الرباط

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

دار أوما
DAR OMA

جميـع كتبنـا متوفـرة في موقـع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

تصميم الغلاف: الفنان التشكيلي العراقي ستار نعمة